

الدكتور محمد رجب البيومي

في قصور الأمويين

مُشاهدة تاريخية تصوّر العصر الأموي بأحداثه وروائعه



دار وحي القلم

فِي قُصُورِ الْأُمُوِيَّيْنِ

مُشَاهِدَةٌ تَارِيخِيَّةٌ تَصَوِّرُ الْعَصْرَ الْأُمُوِيَّ بِأَحْدَاثِهِ وَزَوَائِعِهِ

في قصور الأمويين

مُشاهدة تاريخية تصوّر العصر الأموي بأحداثه وزوائعه

د. محمدرجب البيومي

الطبعة الأولى: 1437 هـ - 2016 م

جميع الحقوق محفوظة

قياس القطع: 14,5 × 21,5 سم

عدد الصفحات: 240

الرقم المعياري الدولي: 8-64-501-9933-978

هدفنا...

تعميم القراءة المفيدة وتدعيم
الكتابة.

وحي القلم تستقبل تأليف الكتاب
والمفكرين المبدعين وتشجع
إمكانات التفكير وفرص النشر.

دمشق - هاتف: 2218526 11 963+
بيروت - تليفاكس: 857444 1 961+
جدة - تليفاكس: 6608904 12 966+
جوال: 0218143 50 966+
جوال: 3637580 50 966+

ص.ب: 4523 دمشق - سوريا

البريد الإلكتروني:

wahe_alkalam@yahoo.com

wahe_alkalam@hotmail.com

دار وحي القلم

أسسها:

سليم محمد دولة

سنة 2002م

الكتب التي تصدر عن الدار تعبر
عن آراء واجتهادات أصحابها.

الدكتور محمد رجب البيومي

في قصور الأمويين^٤

مُشاهدة تاريخية تصوّر العصر الأموي بأحداثه وروائعه

دار رعي القمام



دار وحي القلم

تستقبل تأليف الكتاب والمفكرين المبدعين
وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

تجمع بين الأصالة والحداثة، وتستوحي
إصداراتها من وحي الواقع، من وحي التجربة
والممارسة، ومن رصد ما يُدبر لهذه الأمة ويُراد بها.

يعنيها جديد الإبداع الذهني الذي يُشعُّ
صورة الإسلام النقية في واقع يفصُّ بالأزمات
والنكبات التي تستهدف الأمة في دينها وتراثها
وأخلاقها.

تتقدم - بمعونة الله تعالى - نحو عالم كتابي
من نوع آخر - وضمن خطة تعميم القراءة وتدعيم
الكتابة والأخذ بيد القراء الأكارم - وقد أخذت
الدار على نفسها استقبال الأسماء التي تحمل
العناوين المضيئة الموضحة ضمن خطتها.

تدرك أننا جميعاً في دار الممر، لذا عليها
أن تثير لنا السبيل إلى دار المقر بأمن وأمان
ويسر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.
المدير العام

والله

إلى أخي الأستاذ الفاضل
محمود فهمي البيومي المحامي
تقديراً لأخوته وإعجاباً بنبيله

المؤلف

مقدمة



العصر الأموي - كسائر عصور الحياة - حافل بأحداثه ومفاجآته، ومنها احتفل الكاتبون بتسجيل وقائعه وتدوين غرائبه، فلا يزال لدى المؤرخ الأدبي مجال واسع للتصوير والتحليل، وسأختار في هذه الصفحات من غرائب الأحداث ما يؤدي دوره القوي في تفسير الأعمال وتحليل الشخصيات، وتفهم الأسباب والنتائج، مرتضياً وجهة الحوار الهادئ في رسم الملامح، ووصف المشاهد، وتأويل البواعث، ليرى القارئ صورة هذا الزمن في ضوء كاشف صريح، على أني تريثت كثيراً في مطالعتي الهادفة، ثم في اختيار ما يجمع أن أقدمه من الزاد التاريخي، فأثرت بالحديث كل ذي دلالة بارزة في كشف التيارات المتصارعة، بحيث أضع الرسم الأصيل لجهات مختلفة من زوايا هامة توجب الالتفات، ناسجاً من شتى الخيوط المتزاحمة ثوباً منسقاً لا يفقد في



مجموعه لونا أصيلاً يقوي لحمته، ولا أنكر ما بين هذه الألوان من اختلاف واضح إذ أنها بنيانها المتعدد ترسم صوراً متقابلة للدهاء والطيش والثورة والخنوع، والخصب والجذب والصراحة والرياء والظلم والمسدل والترف والشطف، ولكنها في مجموعها تبرز الصورة الحقيقية لمصر حافل بالغرائب والمفارقات إذ تتحدث عن السياسة والأدب والفن مصورة خطوات الحضارة العربية في بدء طريقها الطويل وما تعاقب على أبطال هذا العهد من شقاء وسعادة، وكيف هيأت الأقدار من وطّد لهم دعائم السطوة والجاه والفتح بدءاً ثم سار الزمن على عادته فجعل من وسائل البذخ والترف وأسباب المنافسة والتطلع ما عصف بهم في النهاية وتلك سُنّة الحياة.

وقد آثرتُ أن أنحو منحى يقرب من المنهج الروائي في تسلسل الحوار وتتابع الحوادث وتحليل الشخصيات، ولم أشأ أن أجعل من كل فصل أقصوصة أدبية تلتزم السمات الفنية في تلوين المسرح وتوشية الظلال والاسترسال في التحليل والاستشفاف كيلا يخرج بنا الخيال الأدبي عن نطاق الواقع التاريخي، فيظن قارئ ما أنني أجيز لنفسي أن أخلق من الحوادث والأعمال ما تجيزه القصّة لكاتبها الفنان، وإذا كان من الكتاب من فعل ذلك في براعة وابتداع فإنني في



هذا المجال أقصر الحديث على الواقع وحده على أن يُساق في سمر سهل يدفع القارئ إلى متابعته وحسبي أن أقدم بعض المواقف التاريخية في إطار جديد.

وإذا كان كثير من حديث هذه المشاهد ما يدور في قصور الحاكمين، فما أدركت بذلك أن أتحدث عنهم وحدهم، ولكنني كشفت عن مقومات العصر وعناصر ثباته، وأدوات هدمه، في دائرة واسعة كان أولو الأمر مركزها الذي يتسع حوله المحيط، كما لم أجعل دمشق حاضرة الخلافة الأموية وحدها مسرح الأحداث، بل شاركتها مصر والكوفة والبصرة والمدينة ومكة والأندلس بحيث تتضح الدولة العربية في مطارحها القريبة والبعيدة في نطاق يتعرفه القارئ دون إجهاد، وعسى أن يجد من وراء ذلك ما حرصت عليه من خصب المادة، وسهولة الاستيعاب وحسن التوجيه.

د. محمد رجب البيومي

أخ جديد



ارتحل المغيرة بن أبي شعبة والي الكوفة من العراق إلى دمشق ملبياً نداء أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، إذ أرسل يدعوه إلى قصر الخلافة على عجل... وكان المغيرة حازماً أدبياً يفكر في كل شيء، ويستشف ما عسى أن يأتي به الغيب من طوارئ وأحداث، فأخذ يقول في نفسه: ولماذا بعث إليّ معاوية دون غيري من الولاة؟ أتكون وشاية سيئة طرقت سمعه فأورثته شكوكاً مبهمة، وأحب أن يكشفها بالمشافهة والسؤال، ثم ماذا صنعتُ بالكوفة مما لا يرضى عنه أمير المؤمنين، أكون بعض عيونه قد نقل إليه ما أبدي من التساهل مع شيعة علي وأنصار الإمام؟ لقد حاولت أن أصطنع الشدة مع هؤلاء فرأيتها ريحاً تزيد الاندلاع وتوجب اللهب، لأن البلد الذي امتحنت بولايته كان ولا يزال وكر الهاشميين! ولا يمكن أن يذهب حب آل عليّ وبنيه من



قلوب أهليه ما بين صباح مساء! ولئن اشتدّ عليهم بعضُ
الولاة ليثيرونُ إعصاراً مدمراً يأتي عليه فلا تطمئن به حياة،
إن التساهل واسترضاء القلوب أدعى إلى جمع الشمل
وتسكين الثوائر، وكم سخط أمامي الساخطون، ونقم دوني
الناقمون، فمحوتُ الغضب المتوقد ببسمة باهتة، أو كلمة
صافحة، وأقسم لأن كنت قابلت السيئة بالسيئة لأنكأنَّ
جراحاً تندمل على حديد، فيفجؤني ما يسوء معاوية من
التمرد والعصيان! إن معي رأيي الناصح وحجتي البيضاء،
ولئن خالفني أمير المؤمنين لأبسطنَّ له رأيي عن صراحة
وتصميم، وهو بعدُ داهيةٌ محنك يميل إلى الإغضاء كما
أميل، فهو أقرب إليّ مذهباً من سواه، ولعله يشكرني على
خطتي الناجحة فأرجع عنه مثلوج الصدر منقطع الوسواس.

كل هذه الهواجس كانت تدور في نفس المغيرة حين
تقدّم إلى صاحب حرس الخليفة يلتمس الإذن عليه في
المثول!! وما كادت تقع عليه عينُ أمير المؤمنين حتى
نهض مرحّباً، وحيّاه محتفلاً، وأجلسه إلى جواره في
هشاشة وإقبال، وقد بدأ المغيرة فأطرى الخليفة بما يوحى
به الموقفُ من تزلف مصطنع، وتمدّح بالكياسة والرئاسة
والدهاء. ثم هنأه باجتماع كلمة الناس على خلافته، إذ بايعه
الحسن بن علي راضياً، ومن ذا بعد الحسن ممن يأبه له



أمير المؤمنين؟ فأطرق الخليفة كالمفكر، ثم نظر إلى صاحبه يقول: إنك يا ابن شعبة في ذكائك ودهائك لتعلم أن الحسن ليس كل شيء في الدولة، فهناك من شيعة عليّ من تغلي نفوسهم بالوجدة والحسرة، ولئن بايعوا اليوم مكرهين، فإنهم يتطلعون إلى يوم قريب تسقط فيه رايتي ويرتفع لواء بني هاشم كما يشتهون، ولقد دعوتك من الكوفة لأستشيرك في هذا الأمر المحيّر، فأنت في موطن العلويين ترى وتسمع أضعاف ما ينقله الناقلون إليّ من اللجاج والخصام، ووالله لقد فكرت في الموقف تفكير المتربص المتحفز، وأخذت أستعرض أسماء الناقمين من شيعة عليّ، والمناوئين من طعام الخوارج، فما رأيت أقوى شكيمة وأوسع حيلة في أولئك وهؤلاء من زياد بن أبيه، فقد اعتصم مني بفارس وجمع من الأموال والرجال ما يفوق العدو.. ولئن ظلّ على شقافه للدولة ليكونن شوكة دامية تؤرق راحتي فما ألتذ بحياة، وإنني لأعلم أن زياداً صديقك وصاحب شرك، وأنت وحدك الجدير بتوطئة الأمر بيني وبينه، ولك أن تضع من الشروط ما تختار، لتمحو حُب آل عليّ من قلبه، وتجذبه إليّ بأمراسٍ لا تنقطع، وأعلاق لا تبید.

فقال المغيرة مبتسماً: علم الله يا أمير المؤمنين لقد فكرت خالياً في أمر زياد، فعرفت أنه قوة جبارة تضر وتنفع،



وتشقى وتسعد، ولئن أمتع الله أمير المؤمنين بإذعانه وولائه
ليجدن أسداً هصوراً وفارساً مغواراً، يرمي به البركان الهائل
فينقم له الظفر والاستقرار... فابتسم معاوية ابتسامة معبرة
وقال في تطلع: اصغ إليّ يا مغيرة، لقد فكرتُ أنا الآخر في
أمر البصرة وما يموج بها من الشغب والثوران، فلم أجد
من يقوم لها غير زياد، فهو أدرى الناس جميعاً بمضايقتها
الملتوية، وأمراضها المعتلة، وقد كان صاحب الأمر بها من
قَبْلِ عليّ فجمع أهلها على طاعته، وغرس في قلوبهم حب
بني هاشم، وقام بالإدارة والجباية والخراج كأحسن ما يقوم
به مخلص غيور.. ولئن سهل الله كل شاق عسير، فجذب
زياداً إليّ لأنامنّ في قصر الخلافة، وقد آويت منه إلى ركن
شديد، وحصن ذي معاقل وأسوار.

فهزّ المغيرة رأسه موافقاً ورأى أن يبسط في أسباب القول
بما يرضي أمير المؤمنين فقال: إن مهارة زياد لم تظهر أيام
عليّ فحسب، بل باركها عمر بن الخطاب، وزكاها أحسن
تزكية على رؤوس الأشهاد، فقد أرسله مساعداً لسعد بن أبي
وقاص في حرب القادسية، فكفاه الحساب والكتابة والخراج،
وقام بتسجيل كل صغيرة وكبيرة في الغنائم والسبي على
أحسن وجه يتاح، ثم رأى سعد أن يبعثه رسولاً إلى عمر
بالمدينة فيبشر بنصر الله، ويدفع بغنائم العرب، فتقدم إلى



الفاروق ثابت الجنان، جريء القول، وشاهد عمر من ذكائه وثباته ما أكبره في عينيه، فقال له: أرايت لو جمعت لك الناس فتحدثهم على منبر رسول الله بمثل ما حدثتني به، أ تكون ثابتاً هكذا غير هياب!! فأطرق زياد في أدب، ثم قال لعمر في ثقة: إنني أشد هيبة لك من الناس يا أمير المؤمنين، وقد حدثتك دون رهبة كما ترى، فأولى أن يرسخ ثباتي أمام الناس، فجمع عمر له القوم وتكلم زياد بما أطرب وأدهش وأقنع، حتى قال عمرو بن العاص: لله دره من شاب أريب لو كان هذا الخطيب قرشياً لساق الناس بعصاه!!

فارتاح الخليفة لما سمع، وقال في ابتسام: لقد علمت ذلك من عمرو، وعلمت معه أن أبا موسى الأشعري قد ترك له أمر البصرة حين كان والياً عليها من قبل الفاروق، فشكاه الناس إلى عمر، وقالوا: ترك أبو موسى الأمر لشابٍ حَدَث غير مجرب، فاستدعى عمر زياداً من البصرة على عجل، وناقشه في أمر عمله، فرأى الحزم والكفاية والسداد!! ثم كتب إلى أبي موسى يقول في اعتزاز: عليك بزياد فلا تقطع أمراً دون مشورته، فنعم النصير على الأعباء!!

ثم سكت معاوية لحظة، كمن يتذكر أموراً بعيدة تواتيه بالسكون والاستجماع، وقال متابعاً: وإنني لأعرف عن يقين



يا مغيرة أنه يكنُّ لك المحبة والسوداد، وقد أنقذك من الحدّ حين لجلج في شهادته عنك أمام الفاروق، فإذا ذهبت إليه وأعطيته رضاي وأمانيّ فسيعتقد فيك الصدق والإخلاص.

فعضّ المغيرة على شفّتيه ثم نظر إلى معاوية في تخابث وقال: أما وقد مدحت زياداً يا أمير المؤمنين بكل ما ذكرت، فهل بلغك ما تناقله الناس عنه يوم خطب بالمدينة لابن الخطاب!!

فانتبه معاوية في اهتمام، وقال في حزم: بلغني والله ما تعنيه، وكنت منتظراً أن تنقله إليّ حين حدثتك عن صاحبك دون تمهيد يطول.

فنظر المغيرة نظرة مأكرة، وقال: إن مثل هذا الحازم الداهية البليغ لا بدّ أن يكون قرشياً من أعرق البيوت، وقد ذكر الثقات أن أبا سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد سمعه يخطب الناس على المنبر بعد القادسية فأسرّ لمن حوله أنّه أبوه، إذ كان غفر الله له، قد اتصل بسمية في الجاهلية فحملت زياداً.

فقال معاوية في حذرٍ: وما منع أبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يعترف بابنه حينذاك؟

فردّ المغيرة في دهاءٍ: لعله خاف بأس عمر، فقد كان لا يقبل الخوض في الأعراض، فأطرق الخليفة كالمفكر ثم قال



بعد تردد: هو ذاك يا مغيرة، ولئن تردّد والدي في استلحاق زياد، فوالله لأجهرنّ باستلحاقه مهما تخرّص الناس!! فاذهب إليه سريعاً في حصنه النازح، وأبلغه أنني أخوه، وسأعلنُ نسبه في يوم مجموع له الناس.

قال المغيرة - وقد أخذ سمت الناصح الأريب - وهب أن بني أمية وهم رحمك وذوو قرابتك قد عارضوك ومانعوك، فماذا تقول يا أمير المؤمنين في أمر يصعب عنه التراجع، وتتشاجر حوله الآراء.

فقال معاوية في تصميم أكيد: أنا الخليفة المطاع!! وإذا اقتنعت بشيء فما ينقضه سواي.

ثم نهض واقفاً وفي وجهه بصرامة وجد، فعلم أن الحديث قد انتهى مع الخليفة فاستأذن في السفر إلى زياد، فأذن له وأوصاه... ثم توجه لتوه إلى خراسان، وفي نفسه مآرب وآمال.



لم يشأ معاوية أن يستشير أحداً من أهل بيته فيما عزم عليه كيلا يتشعب الرأي أو يتزايد الخلاف، بل كتم أمره في نفسه، وأخذ يستدعي سراً من يجذبهم إلى رأيه من شهود



الاستلحاق ليؤدوا الشهادة أمام الناس دون تردد أو اضطراب، وقد أهمّه هذا الأمر فكان يفكر فيه تفكير الجاد المصمم، فإذا هجس في نفسه هاجس بالتراجع والتريث قضى عليه فجأة، دون أن يسمح له بالاسترسال واللجاج!! وكأنه كان يوازن بين استقرار ملكه واستلحاق صاحبه، فيجد أن الأسد المتربص بفارس دعامة قوية، وركيزة وطيدة... ثم إنه بخراسان مقيم على حب آل عليّ والوفاء لشيعته، ولعله إن امتد به الزمن أن يجمع الناس حول الحسن أو الحسين، فيشب ثورة هائلة تنقسم لها الدولة ويتشعب بها الأمر، وقد يقوى شأنه فيقف أمام معاوية وجهاً لوجه، وله من تشييعه لأهل البيت ما يجمع حوله القلوب النافرة في الكوفة والبصرة وسجستان وخراسان، فلماذا لا يسارع باستلحاقه فيضم هذه القوة الوطيدة إلى عماده، وينزعها نزعاً من شيعة عليّ فلا تقوى على نهوض أو تتحرك لقتال... لا بدّ إذن مما ليس منه بد، مهما أثار اللجاج، وأدهش الناس.

وفي أصيل يوم كادح شاق قضاه معاوية في التأهب والاستعداد، توافد الناس أرتالاً إلى مقر الخلافة بدمشق، وهم لا يدرون شيئاً عن دعوة أمير المؤمنين، وما تتمخض عنه من أحداث، فوجدوا زياد بن أبيه يجلس عن يمين معاوية في مقعد واحد!! وقد أعدت المجالس صفوفاً



متلاحقة لتجمع وجهاء العرب من أشراف القبائل والبطون، ثم جيء بمنبر مرتفع فنصب أمام الحاضرين، وصفق معاوية أولاً فتقدمت أخته جويرية بنت أبي سفيان، لتقف مبرقة تتكلم ولا يرى وجهها الناس، فسألها الخليفة فجأة: ماذا تقولين في زياد؟ فقالت في ثبات: هو أخي يا أمير المؤمنين، وقد حدثني والذي بذلك!!

فأخذ القوم لهذه المفاجأة الباغته، ونظر بعضهم إلى بعض يتساءلون بمقلهم الحائرة دون أن يفوهوا بحرف واحد، ولكن معاوية يتطلع إلى الحاضرين في تجهم ينذر بالوعيد والتهديد، فتخفض الرؤوس، وتنطبق العيون فما تشي باستهزاء... ثم صفق الخليفة ثانية بيديه، فجاء المستورد بن قدامة الباهلي، ووقف أمام القوم في عزم وتصميم، فسأله الخليفة: ما تقول في زياد؟ فقال في جرأة صارمة: هو ابن أبي سفيان وقد حدثتني والدته سمية بذلك!!

فتطلع الخليفة إلى من حوله، وتجاهل ما شاهد من الحيرة والارتباك، ثم صفق ثالثة، فحضر زيد بن نفيل الأسدي، وسأله معاوية كما سأل من سبقه، فقال في دفعة واحدة: زياد أخوك وابن أبي سفيان، ونسبته إلى عبيد كاذبة لا تحتمل النقاش.



فهز معاوية رأسه، ثم صفق رابعة، فحضر أبو مريم السلول وقال مندفعاً: أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان حضر عندي في الجاهلية، وطلب مني بغياً، فقلت له: ليس عند غير سمية، فقال: اتني بها على قدرها ووضرها فأتيته بها فخلا معها!!

فتجهم وجه زياد فجأة، وبدا عليه الغضب، وكان من قبل مرتاحاً لما يسمع ويرى، ثم قال: مهلاً يا أبا مريم إنما جئت شاهداً لا شاتماً!! ما لك والقذارة أرشدك الله!!

فنظر معاوية إلى أبي مريم كمن يستنكر عبارته، ثم تطلع إلى القوم فوجد الدهشة الحائرة تضطرب في الوجوه، فلم يعبأ بما شاهد، ثم صعد لتوه إلى المنبر فقال: «الحمد لله الذي أحق الحق وأزهق الباطل... ألا إن زياداً أخي بشهادة الشهود، وقد صححت الآن نسبته على مشهد منكم، فهو من الآن زياد بن أبي سفيان والله على ما أقول شهيد».

ثم نزل ودعا زياداً ليتكلم، فتقدم في حيرة وصعد إلى المنبر فقال: «الحمد لله الذي أحق الحق وأزهق الباطل، ولئن كان ما شهد به الشهود حقاً فالحمد لله، وإن يكن باطلاً فقد جعلت بيني وبينهم الله، وهو على ما أقول شهيد».



ونزل ليأخذ مكانه جوار الخليفة ويفيض معه في حديث طويل، حتى إذا طال الأمد أخذ الناس يتفرقون متعجبين، وقد بلغ الغضب بعبد الله بن عامر أمير البصرة - وكان في الحاضرين - حدّاً بعيداً، وهو من وجهاء بني أمية وله دالة ومكانة، وفي تاريخه بطولة واستبسال، فصاح في الناس على غيظ: لقد هممت إن آتي بقسامة من قريش يحلفون بالله أن أبا سفيان لم يرَ سمية أبد الحياة، وأخذ الناس يفيضون فيما سمعوه وهم أقرب ما يكونون إلى الاستخفاف والتهكم حتى أصبحت دمشق جميعها وأصقاع العرب من ورائها أصدقاء تتردد بما كان من أمر معاوية وزياد... وبات العرب منهما في تساؤل مربك، وتعجب غريب.



خلا معاوية إلى أخيه الجديد في قصر الخلافة، فأثنى ثناءً عطراً على سياسة زياد، ومواهبه، وقال في دهاءٍ خادع - كمن يظهر إغضائه عن ماضيه - إن إخلاصك لعلي وتفانيك في الولاء له كان دليلاً على أصالة معدنك ورصانة أصلك، وقد أحببت أن أنتفع بقرابتك فأظهرت ما خشي أبوك أن يعلنه، وضربت صفحاً عما يقوله الناس من هراء، ولست أرجو غير أن أحل لديك محل علي!! فقال زياد في استعطاف:



لقد أخلصتُ العمل لعلي دون رحم ماسة أو واشجة قريبة،
ولكنك أخي القريب الحبيب، وقد ارتبطتُ بك ارتباطاً باركة
الله وشهد به الناس، وليكوننَّ وفائي لك أبرُّ وأعظم... وإني
- وأيم الله - لأعلم ما تحملتُ من المصاعب في إذعان من
حولك من بني أمية لأمرٍ معك، ولم تكن فيما قمت به
من الاستلحاق غيرَ جريء ندب يتحدى العقبات، ويذلُّ
الصعاب، ولأرينك من سياستي في العرب ما تقرُّ به عينيك،
وتستقر عليه دولتك، وسأنهي القول في ذلك غير مسهب،
لأدع العلم وحده يقوم لديك ببرهان أكيد لا يقبل طعن
طاعن، أو افتيات دخيل! فتبسم معاوية ابتسامة زاهية، وقال:
هذا ما أتوقعه منك، وستلي من الآن أمر البصرة، وأنت أدرى
الناس بثوراتها المتعاقبة، ودواهيها المتأصلة، فبين أهلها من
شيعة علي من لا تطرف لهم عين، أو تستقر بهم جنوب،
وهي مع ذلك ميدان فسيح للخوارج تتراكم في حلبته
جيادهم وتسُل حرابهم. مما أحالها أتوناً يشتعل، وسعيداً
يلتهب، ثم هي مع هذا وذاك مراد اللصوص والمتبطلين ممن
لا يفيئون إلى خلق أو يعتصمون بدين، وإذا كانت البصرة
قد جمعت شذاذ الشيعة والخوارج والمارقين فليس بها أموي
واحد يجمع حوله فئة من ذوي أحسابنا وأبناء ولائنا، وأرجو
أن تكون أنت هذا السيد الذي يغرس شجرتنا الذكية أكرم



مغرس وأنماه... ولا أزيدك علماً بما تصنع فإن أبلغ برأيي بعض ما لديك. فهزّ زياد رأسه موافقاً مؤمناً... ثم قال في حزم: لئن كان أمير المؤمنين قد أحاط خبراً بما يضطرب في البصرة من أهواء وشيع فإنني أشهد الله لأجعلن هذا البلد الثائر مثابة أمن، وقاعدة استقرار، ومن أعياه به دأؤه فعند دواؤه، من ثقل عليه رأسه فسأريحه منه، ولن يجهر مغرض بكلمة سوء إلا قطعت لسانه! على أنني لست محتجياً عن طالب حاجة ولو أتى طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانته، ولأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح بالسقيم، ووالله لو فقد حبلٌ بيني وبين خراسان لعرفت آخذه وشدت عليه النكير.

قال معاوية متهللاً: بارك الله فيك يا أخي فسر على بركة الله، حيث يتألق سلطانك وتزدهر أمانيك... وسارت الركاب تخب بزياد إلى إمارته، وكان من هواجسه المتشاجرة في موج لا يهدأ؛ فهو يفكر كيف يلقي الناس في البصرة بنسبه الجديد؛ وإنهم ليعرفون عن أبيه عبيد كل صغيرة وكبيرة: ألم يبلغ عطاء زياد ألفين من الدراهم ذات يوم من الأيام فيشتري عبيد أباه بألف ويعتقه أمام البصريين، ويقول للملأ: هذا أبي وقد أحببت ألا يكون عليه سلطان فيتحدث الناس عن ذلك مسهبين! ثم ماذا يصنع إذا غضب عليه أخوه من سمية



وأذاع في الناس أن نسبه في أمية دخيل لصيق! يكابد الأمير حرباً من الأعداء وحدهم أم من الأولياء والأعداء؟ على أن الأدهى من ذلك أن البصريين يعلمون جميعاً أن هواه علوي، وله بشيعة بني هاشم صلة واشجة، ومحبة أكيدة، وهذا حجر بن عدي كبير الشيعة يقاسمه المحبة ويشاطره الوداد، أفيصبح ما بين يوم وليلة خصماً لدوداً لقوم ساقاهم الحب وعاقروهم الولاء... وأين يخفي وجهه من العيون التي تتطلع إليه في دهشة بنظراتها الحادة فتحدثه بما لا يستطيع أن يؤاخذها عليه، وأن لها لصوتاً جهيراً تعرفه القلوب، وإن لم تنصت إليه الآذان... وماذا يصنع في الابتسامات الهازئة التي ترتسم على الشفاه حين ينظر إليه القوم مستنكرين ساخرين، تلك هي هواجس زياد تأخذ عليه السبيل فما تدعه يهنأ بنوم في رحلة أو يستمتع بأفق في مسيراً على أنه في هذا الصخب المشتجر من الظنون يتذكر معاوية أخاه الجديد، فيقول في نفسه: أليس معاوية صاحب الأمر والسلطان وقد رضى بما أتوجس منه وأهاب، وإذا كان الخليفة في دمشق لم يعبأ بما يقوله الناس، وأنه ليقراً في عيونهم ما أقرأ من سطور الريبة والاستنكار، وإنه ليلحظ في ابتساماتهم ما ألحظ من بوارق الشماتة والاستخفاف، وهو مع ذلك ثابت لا يتزحزح ولا يميّد! أيكون معاوية أوسع مني أفقاً



وأحكم حيلة! ولم لا أكون مثله مترفعاً عن السفاسف أياً
على الصغار؟ أجل، سأكون مثل الخليفة حازماً مترفعاً،
وسأعادي أصدقاء الأمس عن سيطرة واستعلاء، ولتشهدن
مني البصرة رجلاً غير الذي كان! إن أبا سفيان أبي وقد
شهد بذلك الشاهدون عن صراحة ويقين، فلا يُنسبُ إلى
هذه الدوحة السامقة، ولأخلعُ عني ثياباً رثة طالما استحيت
منها إذا خلوت، وإذا كان الإسلام لا يفرق بين صغير كبير
من الأسر، ورفيع ووضيع من الآباء، فإن العصبية الجاهلية
التي انتشرت اليوم بين القبائل قد نبذت تعاليم الإسلام
وأصبحت تجعل من الأنساب الرفيعة والآباء والخطاريف
ملاذاً يحتمي به الفاخرون، ويكثرث له المتباهون! لقد كان
الفخر بالإسلام والعمل الصالح وخشية الله بضاعة نافعة أيام
علي بن أبي طالب، أما وقد ذهب إلى ربه وتبدل الناس غير
الناس فلا تترك ديدنَ الذهاب الغارب، ولأزّه بما يشمخ به
الشامخون، ولن يستطيع أحد أن يجاهرني بمخالفة، ومعني
سيفي وحولي جنودي وأعواني. فليطو ضلوعه من شاء أن
يطويها على حقه وغيظه حتى يدرج في أكفانه... ولأصبح
سيد العرب بالعراق، وعاهلُ أمية بالبصرة وخراسان!

وما لبث أن دخل البصرة دخول الفاتح المدجج، وبدأ
فأعلن على المنبر نسبه الصريح إلى أبي سفيان، وندد بأولياء



بني هاشم وأشياهم من الشذاذ والعصاة، ثم ثنى خطبته
فأتى بكلمة بتراء كلها وعيد وتهديد، وشفع القول فعمد
إلى صديقه حجر بن عدي فساقه مكبلاً إلى دمشق ليلقى
مصرعه شهيداً محتسباً، مع رهط من صحابته الأبرياء! ورأى
الناس أن الدنيا لا تبقى على حال، لقد كانت تغير الطبائع
والأخلاق، فأصبحت - واعجباً - تغير الآباء وتوشك أن تغير
الأمهات.

ويسمع معاوية في دمشق أنباء البصرة، أفأتاه من سيرة
أخيه ما أعجبه وأبهجه! فأخذ يرأسله مادحاً مشجعاً، وشاء أن
يعبر عملياً عن ارتياحه الجَمِّ لسيرته في الحكم ومسلكه مع
الأولياء والخصوم. فضم إليه اليمامة مع العراق! وجمع في
قبضته ما فتح من الهند والبحرين وعمان فأصبح زياد بن أبي
سفيان الرجل الثاني في الدولة بعد أمير المؤمنين.

واستأذن عبد الله بن عامر على الخليفة ذات مساء
بدمشق، فأذن له في غضب وامتعاض، وما كاد يصفح أمير
المؤمنين ويأخذ مجلسه إلى جواره حتى نظر إليه في ضيق
وقال محتداً:

ما هذا يا عبد الله، أتخوض في نسب زياد مع
الخائضين!!



فردّ عبد الله في ثبات شجاع: لقد أدخلت بيننا يا أمير المؤمنين من لا نعرف من الناس، فإذا كنت لا تحرص على أبي سفيان، فإني على أُمّية جدّ حريص!

فقال معاوية في غضبٍ كظيم: لن يحرص أحد على سلطان أُمّية كما يحرص زياد، ووالله لو وجدت في بني أبي، أميراً كزياد يهابه العراقيون ما ركبت هذا المركب الوعر، أفأنتم منتهون!

فتراجع ابن عامر قليلاً؛ ثم قال في ملقٍ متزلفاً: نحن منتهون إن شاء الله إلى ما رغب أمير المؤمنين ولكن، ما نصنع في السنة حداد تأخذنا بقوارصها الداميات!

فنظر الداهية متأملاً صاحبه، وقال في همسٍ هادئ: سأقطع الألسنة يا عبد الله بالتساهل والإغضاء... ثم سكت ملياً وصاح: الشدة تكثر الأقاويل يا قوم فيندلع الحريق.

فردّ عبد الله مقاطعاً: كلا يا أمير المؤمنين الحزم الحزم مع الناس.

فابتسم معاوية ابتسامة مأكرة، وقال في تحجب: ما أغباك أيها اللجوج المكثار! لقد جاء في قول يزيد بن مفرغ لعنه الله: ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة أحد من اليماني أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني



أفتدري ماذا صنعت به؟

فقال عبد الله: علم ذلك عند أمير المؤمنين.

فتنهّد معاوية كمن يزيح عن صدره ركاباً من الأشجان،
وقال في همس: لقد توعدته فاستكان، ثم عفوت عنه، ولو
كنت قطعت رقبته لأصبح شهيداً يذكره الناس مع الأبطال
الصناديد، ولجعلوا مصرعه كمصرع حجر بن عدي أنشودة
الكرامة والعزة يحدو بها الركبان! ثم رووا شعره الشائن
وزادوا عليه وأطالوا فيه... هكذا الناس.

أما الآن فهم يستنطقون يزيد بن مفرغ فلا يجيب! وهو -
بعد - خائف راهب يزعجه شبح الدم المطلول.

ثم صفق الخليفة بيديه فأتى صاحب كنيته، فأمره أن
يكسو عبد الله بن عامر مطرفاً مذهباً، وأن يكتب إليه بضيعة
واسعة في حمص!

وخرج ابن عامر مسروراً منتشياً يلهج بالثناء على زياد
وأمير المؤمنين.





شكوى عاشق

كان الحرّ في دمشق شديداً ملتهباً، وقد جلس معاوية في قصره الأنيق متضجراً برماً بما يلفحه من شواظ، ففتح نوافذ المكان من جهاته المختلفة، وترك المراوح من فوق رأسه تستدني النسيم وتستميله فما ظفرتُ منه بشيءٍ، حتى إذا بلغ به الضيق مبلغه أذن لجلسائه فتفرّقوا تباعاً، وبقي مع أمين سرّه نصر بن ذبيان، يبادلُه الرأي ويساقطه الحديث.

قال معاوية لصاحبه: لقد فتحتُ على نفسي باباً من العنت الكريه حين أذنتُ لهذه الوفود المتتابعة أن تتقاطر على مجلسي كالسيل ثم لا أستمع منها غير البغيض الثقيل.. فابتسم نصر في دهاء، وقال: لو استشارني الخليفة حفظه الله قبل أن يُرسل بمن يأتيه بهؤلاء لأشرت عليه بغير ما كان ولكنها إرادة أمير المؤمنين، فنظر معاوية إلى صاحبه كمن



يستطلع خبيثته ثم قال في هدوءٍ: لقد جمعت أنصار علي من أماكنهم النائية لأختبر وفائهم بعد موته، ولأسعد نفسي بعض الشيء حين أرى أعداء الأمس يتذللون في مجلسي ويتخشعون، وما كنتُ أحسب أن كبرياءهم العلوية ستلازمهم هنا مع هيبة السلطان ورهبة الجنود.

فقال نصر: وقد أحسنَ أمير المؤمنين حين استمال قلوبهم بما منحهم من أعطيات، فأصبحوا يلهجون بذكره، ويتحدثون بخيره، وتركوا مآزق الشقاق ومواطن الخلاف.

فتبسّم الخليفة في دهاءٍ وقال: أتظنّ يا نصر أنهم سيلهجون بالثناء عليّ، لقد خدعتك نفسك يا صاح!! إن حبّهم لعليّ قد رفرف بين الجوانح والشغاف وقد طاولت اليوم أعرابية جافية، وأرخيت لها العنان كي تقول ما تشاء، ثم منحتها ذخيرة ثمينة من المال، وقلتُ في تطلع: لو كان عليّ على قيد الحياة ما منحك درهماً واحداً، فصاحت في تحدّ صارخ: نعم مان كان الإمام عليّ كرّم الله وجهه ليعطيني وبرّة من مال المسلمين!! أفتنتظر شكراً من هؤلاء؟ فأطرق نصر كالمفكر، ولكن معاوية قال في ملاطفة: لا عيك يا نصر، فسأمنع هؤلاء من زيارتي بعد الآن، وسأحدث من يفد إليّ من شذاذ الأعراب، قلوبهم من الفكاهة النادرة ما يجلبُ عليّ فيضاً من السرور والانتشاء!



فقال نصر في تأدب: هداك الله للبر يا أمير المؤمنين،
وإن على بابك من هؤلاء البداة من يضيقُ بهم الحصر، وهم
يتلمسون السبيلَ إلى وجهك فلا يجدون، وقد رأيتُ قبل
دخولي عليك أعرابياً يتوسل وينزلف ويسألني أن أفسح له
الطريق إليك، فما استطعتُ أن آذن في غير ما أملك، وما
أخاله إلا منتظراً يترقب، فإن شاء أمير المؤمنين أدعوه فذاك!
فقال معاوية في مرجٍ ظاهرٍ: عليّ به يا نصر وعسى أن
يُمتعنا بالشهي الطريف.

خرج نصر يدعو صاحبه، وما لبث أن عاد بإعرابي نحيلٍ
ممروقٍ عليه أثمالٌ رثة تدلّ على فاقة متأصلة وفي وجهه
شحوب ينطق بالحرمان واللوعة، وأن طيوف الكآبة لترسم
على وجهه صورة حزينة تدعو إلى الحذب والإشفاق، فما أن
وقعت عينه على معاوية حتى أكبّ على البساط لثماً وتقبيلاً،
ثم نظر إلى الخليفة نظرة ضارعة كمن يستأذنه في الحديث.

قال معارية في هدوءٍ وقورٍ: مَنْ أنتَ أيّها الرجل ومن أين
أقبلت؟

فقال الأعرابي في نغمةٍ حزينةٍ والهة: أنا سعدُ المذري يا
أمير المؤمنين وقد طويْتُ إليك من الأرض من المدينة حافياً
غير منتعل وجوعانٌ غير آكل، وظمآنٌ غير ريان..



فضحك الخليفة ثم قال: وهل خَلَتْ مدينة رسول الله من
الكرماء الأجواد حتى تضيق بك على رحبها الشاسع فتسرع
إلى دمشق طاوياً تتلمس هبة أمير المؤمنين!

فأسرع الأعرابي يقول: لست طالب مال يا سيدي، ولكنني
مظلوم ينتصف لنفسه، وقد نزلت بي شدة ليس لها سواك.

فقال معاوية: ولم لم تتوجه إلى مروان بن الحكم حاكم
المدينة من قبلي ونائبي عليها بين الناس!! دُونَ أن تعتسف
الطريق!

فزفر سعد زفرة حارة ثم قال وماذا أصنع إذا كان
مروان بن الحكم غريمي العنيف.

فنظر معاوية إلى الرجل الساخر وقال: مروان بن الحكم
شيخ بني أمية الحصيف وداهية العرب غريمك أنت أيها
المسكين!!

فطأ الرجل رأسه إلى الأرض وقال في كآبة: هذا ما
كان!

فالتفت معاوية إلى نصر وقال أمر عجيب! فابتسم نصر
في لباقة، وقال: لقد صحّت فراسة أمير المؤمنين، فهؤلاء
الأعراب يقدمون علينا دائماً بالطريف العجيب!!



ثم نظر الخليفة نظرة فاحصة إلى الأعرابي، وقال له أبسط ظلامتك دون تزيد أو افتراء، وسأفصل بينكما بالحق الصريح! قال الأعرابي، لقد أجبرني مروان على أن أطلق زوجتي سعاد وزاد فسجنتني في محبسه حتى انقضت أيام العدة، ثم اقترن بها كرهاً دون تودد، وتركني هائماً تائهاً أبحث عن صبري فلا أجد، والتمس عقلي فلا أستطيع!!

فنظر الخليفة إلى نصر... وكأنه يطلب أن يظهر رأيه فيما سمع، فقال نصر: إن أذن أمير المؤمنين بابتعاد الأعرابي قليلاً عن مجلسنا الآن كاشفته الحديث، فصفق معاوية بيديه فدخل حاجبه الأصهب فأمره أن يحتجز سعداً لديه إلى حين ثم أقبل على جلسيه يستمع منه ما يقول!

قال نصر بن ذبيّان: لقد كان اختيار مدينة رسول الله لإمارة مروان بن الحكم وضعاً للشيء في غير موضعه، فالرجل - في رأيي - قاسٍ ظالم لا يلتزم حداً رادعاً في تنفيذ رغبته وقد كانت المدينة مسرح رسول الله وخلفائه من بعده، ساروا في حكمها سير العدالة والرشاد فعرف أهلها عنهم سلامة الرأي وعدالة الحق ثم فوجئوا بمروان فرأوا ما لا يعهدون من شطط المغالاة ونزق الهوى، فضجّوا وبرموا وما أظن سعداً هذا إلا محقاً فيما يقول!



فنظر معاوية إلى نصر وأجاب في هدوء: لقد كان اختيار مدينة رسول الله لإمارة مروان وضعاً للشيء في موضعه من وجهة نظري الخاصة وليست وضعاً للشيء في غير موضعه كما تظن، فأنا أعلم أن مروان طموح يشرب إلى الخلافة ويتمنى من أعماقه أن يرتفع على جنازتي صوت النوائح في أقرب وقت يكون، فيسمو إلى مأربه الخطير، وقد اخترت له المدينة بالذات ليأتي بها من شروره ما يدفع أصحابها إلى الشكاية والتنديد، وأهل المدينة فيما أرى قوم غير أباة لا يسكتون على ضيم أو يصبرون على باطل، وفيهم أهل الرأي والمشورة من نجباء قريش فإذا وصموا مروان ببوائقه فهيئات أن يسير له ذكر، أو يتمهد طريق لمبتغاه!!

وقد تحقق ما أملت فلم يحمده حامد، ولم يمض بتقديره حديث..

قال نصر حيّا الله أمير المؤمنين وبيّاه، لقد خبر النفوس فكشف عن سجوف الرياء والمصانعة كما درس مدن الخلافة مدينة مدينة فرمى كل ناحية بمن يوافقها من أولياء حكمه وأصحاب سلطانه!! وما أرى في حادث سعد إلا قنطرة للتشهير بداهية ماكر جاوز الحد وجانب القصد، فإن رأى أمير المؤمنين أن يناقش الأعرابي مناقشة فاحصة ثم يصدر حكمه



بما يشتهي كان في ذلك صلاح أمره، وطمأننة وادعة لمن
يستجير بعدله من بأس الباطشين، فصفق معاوية بيده ثانية
فدخل الحاجب محيياً فطلب سعداً بإيماءة موجزة وسرعان ما
أقبل، وقد ذهب عنه الروع! وأحسّ ببرد الراحة يسري قليلاً
إلى نفسه فملك زمام قوله، وشافه الخليفة في ثبات واتزان.

قال الخليفة كيف تزوجت سعاد يا سعد!!

فقال الأعرابي حفظ الله أمير المؤمنين إنها ابنة عمي،
وقد كنا صغيرين نخرج إلى البادية فرعى الغنم في طهارة
بريئة، فتمضي السائمة متلمسة نبات الأرض كما تشاء ونظلاً
معاً نتجادب حلو الحديث ومعسول الكلام طيلة اليوم حتى
إذا استأذنت الشمس للروح نهضنا معاً فجمعنا مما تفرق
من الحيوان وكررنا راجعين إلى خيامنا القريبة، وفي نفسنا
شوق مبرح إلى أن تشرق شمس الغد فنستأنف ما كنا فيه من
سمر وإمتاع، وما زلنا كذلك حتى أسلمنا الصبا الغصن إلى
عنقوان الشباب، فتقدمتُ إلى عمي فطلبت يد ابنته، فاشترط
صداقاً كبيراً أعانني الله على تحصيله وتم اللقاء!!

قال معاوية ألم يكن بينكما حب تداوله الناس؟!

قال الأعرابي كان بيننا حب صامت جهدنا كل الجهد
في إخفائه واكتتامه لما نعلم من أن ذبوع الشوق يحول دون



الزواج!! وكانت صاحبتني عاقلة متزنة فلم تظهر لأهلها ما
يكشف عن ميلٍ أو ينمُّ عن كلمة، وكنت كما كانت أتكلف
معارضتها أمام الناس، وأطري مَنْ دُونها من اللذات في
إسهابٍ مموّهٍ حتى غفلت الأعين المتيقظة، وسكن الهاجس
الملم!!

فضحك الخليفة وقال في ملاطفة: حذقتما فن السياسة
في البادية يا رعاة الأغنام!!

فقال نصر في توددٍ ظاهرٍ: إنها فطنة الأعراب يا أمير
المؤمنين!!

فنظر معاوية كمن يفكر في مشكلٍ دقيقٍ ثم قال: وكيف
وقعت زوجتك في شرك مروان!!

فتأوّه سعد تأويهةً حارة ثم قال ودموعه توشك أن
تنحدر، لقد مرّت بنا الأيام الأولى حلوة صافية، فكنت
أحضر لزوجتي ما تريد من الطعام واللباس والزينة، وكنت
لفرط صبابتي بها لا أمنع عنها شيئاً مما تود، فلجأت
إلى الاستدانة والإسراف حتى عصفت مآربها بما جمعتُ
وادخرتُ، وعرضتُ ناقتي وأغنامي للبيع عن سماحة
واغتباط... ثم زارنا والدها ذات مساء فلم ير ما يعهد من
أسباب الرغد وأفانين الرفاهية وأدرك أن الفقر قد أطبق



علينا بقبضته العسيرة، فأرعد وأزبد، وأشار بأن أعجل
بتطليقها لتجد الكفء، الموسر من الأزواج فأغلظت له
القول، وجابتهته بما أجبرني عليه شططه البالغ في مغايظة
ولجاج... فرفع الأمر إلى مروان!! وحلت ساعة المحاكمة
فرأى الحاكم من سعاد بدمراً يتألق بالجمال ويشرق بالفتنة
والروعة فملكته عليه عقله ومال بوالدها ناحية فعرض
عليه أن يتزوجها بعد أن يكرهني على تطليقها وبسط له
يديه بما أخذ عينه من الدرّ والجوهر فرحب عمي بمصاهرة
الأمير...

وفوجئت بمن ينهال عليّ بالسياط المحرقة فما انقطع
شواظها اللاهب عن جسدي الناحل حتى نطقت باليمين!! ثم
سُحبتُ على وجهي إلى ظلمات المحبس أتأوه وأتوجع...
ولا أدري متى يكون الخلاص، ومَرّت شهور خمسة خلقتها
أعواماً ثقيلة بطيئة حتى إذا انقضت عدة الزوجة المكروهة
على أمرها زُفّت إلى الأمير في بيته. وأُطلق سراحى لأهيم
في الطريق على فزع ووحشة ثم آتى أمير المؤمنين فأحتكم
إلى مروءته وأطمع في عدله الأكيد!!

قال معاوية - وقد هزّ رأسه متأملاً - ستمكث لدينا أياماً
حتى تذهب الرسل وتأتي بما يكشف الحق الصريح!



فأكبَّ سعد على البساط يقبله ويمرغ في ديباجه الناعم
جبينه وخديه ثم نهض إلى منازل الوفادة ينتظر ما تتمخض
عنه الأيام في خطبه العنيف.

أما معاوية فقد خلا بصاحبه يستشريه، وقد أدرك نصر
بحصافته ما يتردد بنفس الخليفة نحو مروان، فرأى أن يشير
بما يقع من نفسه موقع الإرتياح، وقد أظهر جداً حازماً
حين بدأ يقول.. إن اغتصاب زوجة حسناء من رجلها الوفي
جريمة نكراء، ولو علم مروان أن المأساة قد انتهت إلى أمير
المؤمنين ثم سحب عليها ذيل الإغضاء لتمادى في مظالمه،
وقد يأتي من المآثم ما لا يُحتمل فتشور عليه النفوس ثورة
ينتقل صخبها إلى مقام أمير المؤمنين، فهو الذي أقامه والياً
بأمر وينهى كما يشاء!! فلا بدّ من ردعه والتشهير به جزاء ما
أسلفت يداه... ثم إنك يا أمير المؤمنين لن تنسى موقفه من
مبايعة نجلك يزيد فقد شقّ العصا وجاهر بالمخالفة، ولولا
سعة صدرك ما أمعن في اللجاج دون استيحاء!!

فردّ معاوية في دهاء: وهل كنت تريدني أن أبادر بعزله
حين أظهر الخلاف في مسألة يزيد!! فوالله لو تمّ ذلك لانحاز
إليه من أمية فريق كبير، فأعرض للعصاين في جبهتين
متباعدين، جبهة داخلية يشغب فيها ذوو الرحم من أولى



القراية، وجبهة خارجية لا أزال أكابد من صعابها ما يرهق
ويبيد!!

ولعل فريقاً من هؤلاء ينضمون إلى أولئك فيتزايد الشر
ويعم البلاء، لقد انتظرتُ على مضضٍ ولم أشأ أن أعقب
على ما قال بل بعثت إليه من التحف والكنوز ما أسكت
لسانه إلى حين! وها هي ذي فرصة سانحة لا بد من اهتبالها
قبل أن تفوت فكيف السبيل؟

قال نصر بن ذبيان: سأرحل من الغد إلى المدينة يا أمير
المؤمنين، ولن أكلمه في خلوة ساكنة بل سأنتظر صلاة
العشاء حتى إذا أقبل مع القوم وامتأ المسجد بالراكن
والساجد والقائم أعلنتُ إليه أمر أمير المؤمنين في طلاق
سعاد فأنته بذلك مَنْ غَفَلَ عن جرمه الشنيع ثم لا أغادر
المدينة حتى أصحابها إليك وقد أخزيتُهُ في ملئه فيستكين!!

قربت الخليفة برفق على كتف صاحبه.. وأوماً إليه إيماءة
الموافق المقدّر، وأذن له في السير:

وشهدت المدينة بعد أيام نصر بن ذبيان نديم معاوية
وأمين سرّه يذهب إلى مسجد رسول الله فيصلي ركعتين
خفيفتين بعد المصير ثم يطيل المكث بالمسجد فلا يريمه إلى
قصر مروان كما اعتاد رسل دمشق أن يفعلوا في كل سفارة



تتاح!! ويبلغ النبأ مسامع مروان فيتھياً لاستقبال صاحبه، ويفكر فيما عسى أن يكون قد أتى به من المهام فيتوافد على ذهنه عشرات الأمور غير مسألة سعاد، ثم يدير في نفسه إجابات مختلفة عن أسئلة تتعلق ببيعة يزيد، واحتيال معاوية وانقسام بني أمية، ليكون على استعداد تام للإجابة إذا ناقشه نصر بمسجد الرسول على رؤوس الأشهاد حتى أذن المغرب فنهض الوالي كما يفعل دائماً إلى المسجد الجامع ورأى نصراً يجلس بجوار المنبر، فأشاح عنه متجاهلاً مكانه وأدى الفريضة مع المصلين ومكث في رهط من صحابه ينتظر صلاة العشاء!! وقد فطن نصر إلى وجود صاحبه فعلم أن المسرح قد هُيئ للتمثيل الناجح، إذ اجتمع النظارة المرتجون وتطلعت الأسماع إلى ما سيقال، فتوجه إلى الوالي مسلماً في تحفظ واتزان، ولم يشأ مروان أن يزيد على غير الإجابة الرسمية، فردّ السلام بصيغته المعهودة، وتلاحظ الرجلان في صمت، وقد شخّصت الأبصار وامتدت الأعناق مشرّبة إلى مجهول لزيد تتوقعه ولا تبين ملامحه في وضوح!!

وهنا يقول نصر: (يا مروان):

لقد ساء أمير المؤمنين حفظه الله أن تُقدم على الزواج من امرأة لا تريدك فتجبر زوجها إجباراً على الطلاق وترمية



في غياهب السجن حتى تنقضي أيام العدة.. ثم تقذف به
ليهم تائهاً شارداً حتى يدركه الخليفة بعدله الرحيم، وها هو
ذا يرسلني لك لتطلق الزوجة المغصوبة دون إمهال على أن
أسير بها فوراً إليه فتد إلى كفئها الكريم.

فوجئ مروان بالخبر!! فبحث عن كلمات تسعفه في
تبرير موقفه فأدركته الحيرة المذهلة وتصبَّب جبينه عرقاً ينطق
بالخزي والخجل، وقد أثار ذلك بعض من يبغضونه من أهل
المدينة، فتجمعوا حول نصر يسرفون في إيضاح ما يرتكبه
الوالي من مؤاخذات!! ونصر يفسح لهم من اهتمامه واعتناؤه
معلناً أن معاوية لا يرضى أن يُظلم إنسان في خلافته، وأنه
يُحاسب الولاة - أدنياء وبعداء - جميعاً على ما يقترفونه من
مغارم بين الناس وسينقل إليه ما سمع دون تزييد أو مجاملة!!
ثم توجه في نشوة الظافر إلى مروان وأعلن أنه مسافر مع
سعاد في الصباح ويريد أن يسمع يمين الطلاق، ورأى الوالي
أن دَوِيَّ المسجد كاد أن يخرسه على وهن في السمع وتقدم
في السن. وأنه إن أبطأ قليلاً لا يأمن أن يقذفه شاتمه ببعض
ما يؤذيه لا سيما وقد أدرك جنده الخاص هوانه على الخليفة
فليسوا بطائعيه!! إن أمرهم بإرهاب الحاضرين، فلفظ اليمين
في ألم صامتٍ وحزنٍ دفين!



وأشرق الصباح فحملت سعاد في هودج أنيق إلى دمشق!! وجدّ نصر في مسيره حتى قدم إلى الخليفة في بضعة أيام!! وقد نقل إليه صورة أمينة عما قام به في مسجد رسول الله ﷺ، فاطمأن معاوية إذ تأكد أن مروان ليس من معشره في عزة تمنع أو بأس مخيف... وصمم على أن يجاهر ببيعة يزيد دون اكتراث، فقد أوصدت الجبهة الداخلية إلى الأبد بانخزال ابن الحكم وكسدها، وبقيت جبهة واحدة تتطلب الصبر الطويل.

ومثلت سعادُ أمام الخليفة، فماذا رأى؟ لقد شاهد حُسنًا أخاذًا يكتسح ويروع، فعذر مروان - غريمه - إذ وقع في سحرها الخلاب، ثم أخذ يتحسس قلبه في صدره فلمس طائرًا مغلولاً يضرب بجناحيه على غير استقرار... فأطال إليها النظر، ثم صفق فأتى الحاجب لينقلها إلى الغرفة المجاورة، كما أمر معاوية وكأنّ نصرًا قد لاحظ ما طرأ عليه من انفعال فأطرق برأسه إطرقة قطعها عليه الخليفة حين قال: مَنْ يدري لعلها كانت تحب مروان وتبغض سعدًا، فكيف نجبرها على زوج تأباه!

فقال نصر: سلها يا أمير المؤمنين لتفصح عما تكنّ من

صبوات!!



فابتسم معاوية في خبثٍ وقال: لقد طلقها مروان، فما من
سبيل إليه بعد الآن!! فهل لك في سؤال حاسم تكشف به
عاطفتها دون حجاب؟

فقال نصر: لقد لمستُ شواهد الفرحة على وجهها حين
أخبرتها بالمدينة بأن سعداً ينتظرها بدمشق!! فأبدت من
البشاشة ما يهتك كل نقاب!!

قال معاوية في عناد: وإذا خَيْرْتُها بين سعد ومروان وأمير
المؤمنين فالى أي ناحية تميل؟

فتلعثم نصر قليلاً غير أنه سيطر على ثباته فجأة فقال:
هي أمامك يا مولاي فسلها كما تشاء!!

وكانت لحظة محرجة حين وقفت سعادة مرة ثانية أمام
الخليفة لتسمع هذا السؤال من شفتي أمير المؤمنين:

إيه يا سعد أيهم أحب إليك أمير المؤمنين في عزه
وشرفه ونعمته؟ أم مروان في عسفه وجوره؟ أم سعد في
خشونة عيشه وسوء حاله؟

فنظرت الفتاة نظرة أخاذة ذات معنى كبير، ورفعت جبينها
المتلألئ إلى أمير المؤمنين، ثم قالت في تودة وثبات: مولاي
لن أخذل سعداً وقد شربت معه من قبل كؤوس الصفا فلاذق
معه الآن ضروب البلاء.. سعد مني وأنا من سعد!!



دهش معاوية وأكبر وفاءها النادر، فمنحها ثروة ثمينة
تكف عنها بؤس الأيام، ودعا بابن عمها المشوق، فرجاه أن
تمكث في مقاصير حرمه بدمشق حتى تنقضي العدة، وبعدها
تزف إليه بعقدٍ جديد!!

فرقص قلب الأعرابي في صدره، وانكب على قدم
الخليفة يلثمها في غبطة واهتياج!!

وخرجت الفتاة إلى حيث تنتظر يومها القريب، ومن
ورائها سعد يستحث الليالي ويستبطن الأيام!

قال معاوية لنصر متراجعاً - وقد انفرد به -: أتراني كنت
جاداً حين طرحت عليها هذا السؤال؟

فقال نصر متخابثاً: معاذ الله يا أمير المؤمنين! لقد كنت
تستطلع حقيقة شعورها نحو مروان!!



على ضفاف النيل



جلس عبدالعزيز بن مروان والي مصر في قصره الذي
بناه بحلوان يتأمل حاضره وماضيه ويقول في نفسه: هأنذا
أقيم في مكانٍ ناءٍ عن عشيرتي وأهلي منذ عشرين عاماً،
وليس بمصر ما بدمشق من بهاء الخلافة، وعزة الحكم،
 واجتماع القبائل، وازدحام الوفود، ولو تركتُ وشأني لفارقتُ
إمارة مصر، وانفردتُ بذوي مودتي في قصور أمية على
ضفاف بردى العزيز!!

ولكن أبي مروان رَحِمَهُ اللهُ قد ألزمني إمارة هذا البلد، وقال
فيما أوصاني به: «لَأَنْ تكون رئيساً في مغتربك النازح،
تُصدِرُ الأمر والنهي، ويؤمك المؤمنون من كل فج، خيرٌ من
أن تُصبح شخصاً مهملاً في بلدك وبينَ معارفك» ولعل الحق
معه ولا أعلم!



ثم أسندَ رأسه إلى يده كأنما يراجع نفسه فيما نتحدث
به إليه، فابتسم ابتسامة عابرة حين تذكر أنه أميرٌ لا كالأمراء،
فجميعُ خراج مصر في يده، لا يرسلُ شيئاً منه إلى دمشق،
وأخوه عبد الملك يستشيرُه ولا يملك أن يعزله كسائر الولاة،
فهو أميرٌ وطيدٌ لا أحدٌ يعلوه غير الله، وماذا يريدُ من دمشق،
وفيها تتزاحم الأعباء، وتتربص المكائد، ويسير النفاق
والشقاق على قدمٍ وساق!!

أما هو في إمارته الهادئة فآمن السرب، نافذ الكلمة،
مجتمع الأمر، ينظر حواليه فلا يجد غير الطاعة والإذعان،
وماذا يبتغي في دمشق غير ذلك؟! لئن كانت مراد الفصحاء
من ذوي البلاغة والشعر وملجأ الوافدين من أولي التزلف
والمديح؛ فإن هؤلاء جميعاً يسعون إليه بمصر فينشدون
مدائحهم مُسهبين. ويغدق عليهم إحاسنه كما يغدق أخوه
سواءً بسواء وحسبه أن تكون مصر على أيامه معقد الآمال
ومناط الأحلام!

كان الأمير غريقاً في هواجسه تلك تتنقل به من مضطرب
إلى مضطرب، حين دخل عليه حاجبه الخاص يعلن أن
الشاعر العذري جميل بن معمر صاحب بثينة، قد وفد عليه
مسليماً، وهو في انتظار الإذن خارج الباب، ليؤنس الأمير!



وابتهجَ عبدالعزيز بمقدم الشاعر: وفرح كأنما فوجئ
 ببشارةٍ سعيدة، وقال في نفسه: سأحدثُ إلى أنبلَ شاعر
 عرفه الأدبُ لعصره، فجميلُ إنسان أريحي لا يؤم الأمراء
 لمديح يُنشد، أو عطاء ينال، وقد طوى شبابه الأدبي لم ينظم
 بيتاً واحداً في الثناء على أحد، ثم إنه عاشق عميد، له من
 غرائب وعجائبه، ما يجذب الأسماع ويستهوئ الألباب، وهو
 لا ريب سيمتعي بأعذب سمر وأشهاد! ولم يتمالك أن صاح
 بحاجبه: أدخله محترماً مبعجلاً.. فأسرعَ ليعود به في توددٍ
 واحتفال.

نظرَ عبدالعزيز إلى زائره الكريم فلم يرَ ما يعهده في
 وجهه من تألق الصفحة، وبهاء الرونق، وكانت له به معرفة
 بالجزيزة - بل رأى الشحوب الكئيبَ يصبغ ملامحه، ويشي
 بانقباضه والتباعه!! وإن عليه من الهزال النحيل ما يؤجج
 لواعج الحسرة والتلهف، فسألَ عبدالعزيز في أسف حائر:
 كيف تبدلت بك الحال يا جميل؟

فابتسم الشاعر ابتسامة باهتة، وقال في مرارة: لقد ثارت
 عليَّ ثواري بالحجاز، فهرعت أسكنها قليلاً على ضفاف
 النيل، وعسى أن أجد هنا في مجابهة اليأس الصارم برد
 الراحة والهدوء.



قال الأمير كالمتجاهل: أي ثوائر تعني يا فتى العذريين؟
فهمس الشاعر في عتب: كأن الأمير حفظه الله لا يعلم ما
تناقله القوم عني من لواعج الصبابة وثوائر التباريح!!

فتراجع عبد العزيز يقول: كيف؟ وأنت شهير جهير! لقد
أسرعت إلى قصائدك الرقاق، تنطق بكوامن الشجن، ولواهب
الأسى، وإنها - شهد الله - لأغنية الركبان، وترنيمة السامرين.
فأوماً جميل برأسه كالشاكر، وسأل في حيرة! وماذا
يرجع إلى قلبي المفطور من غناء الركب، وترنيمة السامر،
وكبدي حري لا تعرف غير اللوعة والأنين!

فابتسم الأمير، ونظر إلى صاحبه في عطف، ثم قال: لقد
جنت عليك رجولتك يا جميل، وإنها لجزية فادحة يؤديها
الرجال في كل جيل!! أخبرني بربك عن طرائف وقائعك فقد
ألممتُ بملح لطيفة منها، وأريد المزيد!!

فتأوه العاشق تأويهة حارة وقال: كأن الأمير لا يعلم
أن الحديث ينكأ الجراح، ويضرم السعير!! ولو كان ذهني
مجتمعاً لبادرتُ فحدثتُ الأمير، ولكن القلب تائه، والفكر
عازب، واللسان بكى.

فربت عبد العزيز بيديه على صاحبه وقال ملاطفاً: أعلم
أن الحديث عن الأشجان يخفف كثيراً من جهامتها الصارمة،



وكم من ضائق بهمه الكارب، أذاع حديث إلى ذي أنين،
فانفرج ضيقه، واتسع صدره، ولي أمل أن يكون حديثك
معي مدعاة الترويح والتنفيس، على أنني لن أتعبك في تتابع
التسرد، فأسأل، وعليك أن تجيب.

قال جميل في أدب: أما إن رغب الأمير فله أن يسأل كما
يريد...

فضحك عبدالعزيز في نشوة، وقال مبتسماً: حيّاك الله
يا جميل، لقد أبيت إلا مروءة عُذرية! فأخبرني إن شئت
كيف بدا هيامك بهذه الغادة المفتان؟

فزفر العاشق زفرة كاوية، ثم أسعفه نشاطه في فورة دافعة
من روعة الذكرى فبدأ الحديث في تتابع وكأنه يقرأ من
كتاب:

قال جميل: كنتُ أسير ذات صباح هادئ النفس بوادي
بغيز، ومعني فصيلان أراحهما، فدنوتُ من الماء لبعض
شأنهما، فجاءت بثينة وهي يومئذ جويرية صغيرة، فرمت
فصيلي ببعض الرمل فشردا هائمين. فملكني الغيظ. وأغلظت
لها القول. فردت عليّ بمثل ما قلت. فما أن سمعت حديثها.
ورأيت قسماتها الثائرة. حتى انكسرت لها إنكساراً قسم
نفسي إلى شعبٍ مختلفات!!



فقال عبدالعزيز لعل هذا تفسير قولك القديم:
وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيص، يا بُشَيْن، سبابُ

فقال جميل: أجل أيها الأمير!

فنظر إليه عبدالعزيز نظرة ضاحكة وقال في تحبب: عرفنا
مطلع القصيدة، فكيف اشتهر أمركما في الناس؟

فعضَّ جميل شفتيه، كأنما يأسف لشيءٍ قد كان ثم قال:
لم ألبث أن جاش خاطري بالشعر فنظمت خوالجي في
قصائد ومقطوعات، وطار بها الراوون في كل مكان، حتى
انتقلت إلى بثينة فأعجبتهأ أيما إعجاب، وطفقت تتعرض إلى
حين ألمَّ بحيتها مشجعة محبيه فملكك فؤادي وأسرت نهاي!

فردَّ عبدالعزيز كالناصح: لقد كنتما مخطئين فيما
أتقيتماه!! كان الأولى أن تكتما ما بقلبيكما من الحنين فلا
تعلناه، ثم تدخل البيت من بابه. فتتقدم إلى والدها خاطباً،
ولن يجد لها زوجاً كريماً مثلك، فيلبي الرجاء في فرح
وابتهال.

فأطرق الشاعر إطرقة حزينة، وقال في أسفٍ ملئاع:
ليأذن لي الأمير حفظه الله أن أقول في صراحة واثقة: إن
العابر على الشاطئ لا يعرف ما يكابده السابح من أهوال..
فالحبُّ كما كابدته حالة جنونية تسلب العاقل نهاه. فلا يفكر



في أمره تفكير الهادئ الرزين، بل يظل كالحالم الواهم، تمتد أمامه الرؤى البهيجة دون أن يملك لها تحويلاً واختلافاً؛ فهو منها في لذة تشغله عن نفسه. وتملك عليه منافذ حسه، حتى تحين الساعة المحرجة فيستيقظ من سباته، وقد تلاشى حلمه البهيج ولم تبق غير الحسرات.

فاهتزّ الأمير اهتزازة السرور، وقال في غبطة: أنت شاعر يا جميل في حديثك كما أنت شاعر في قصيدك فبالله إلا أفضت في هذا الإبداع!!

فنظر إليه جميل كالعائب وقال في نعمة حزينة: علم الله ما أردت التزيد في البيان، ولكنني أذكر لك أن رشادي كان منتهباً مسلوباً، وإلا فكيف جاهرت بصبوتي وأنا أعرف ما يعقب ذلك من الحرمان والفراق!! كما جرت به تقاليد البداية!

فردّ عبد العزيز يقول: وقد كان رشاد بثينة مسلوباً ضائعاً كرشادك.. وإلا كيف جازفت بالتعرض إليك، وجاهرت بالهيام واللوعة، وهي تعلم ما يتهدد قلبها من أهوال... فأطرق جميل كئيباً، ولكن الأمير يواسيه فيقول: لا بأس يا جميل، فهذا ما كان فاعتدل الشاعر في جلسته وقال في حماسة: أقسم لك أيها الأمير أنني لم أعشق جمالها الناضر



وحده. ولكن عشقت فطنتها المتوقدة وذكاءها اللماح: لقد كنت أبعث إليها رسولي بالرمز الغامض لا يفهمه أحد من الخلطاء فتدركه وحدها كما أردتُ على خير وجه يتاح!!

فقال عبدالعزيز سيحلو الحديث كثيراً يا جميل فاضرب لنا الأمثال.

فنظر الشاعر إلى جليسه ثم وضع يده على جبهته كمن يستذكر حادثاً بعيداً كادت تمحوه الأيام وقال في تودة وهدوء أعصاب: بلغ بي الوجد ذات عشية أقصاه وخشيت أن أَلَمَ بحَيِّها المستيقظ، وقد برقت الأسنة ولمعت السيوف، وأهدَرَ والي المدينة دمى إن ذهبْتُ إلى هناك، فقلتُ: لا بد من الاحتيال، وتوجهتُ هائماً لا أدري أين أقصد، فرأيتُ في الطريق شيخاً وقوراً، يقودُ نياقاً كثيرة لبني حنظلة، فحيَّتهُ تحية مؤدبة، فردَّ عليَّ بأحسن مما حييت، وأخذتُ أساقطه فنوناً من الحديث حتى أنس بي وأنست إليه، وسألني عن حاجتي، فقلت في سداجة متكلفة: أتعرف هذ الحي من بني عذرة فقال: نعم، فقلت إنَّ لي ناقة سمراء تتظالع في سيرها، وقد ضلَّتْ هناك، وبيننا وبينهم من العدا ما لا أستطيع معه الذهاب إلى هناك، فإذا قبلت أيُّدك الله أن تذهب إليهم فتطوف بالمنازل سائلاً عنها، كان لك حسن جزاء وأوفاه



من الله، فقال الشيخ: دونك نياقي فخذ منها ما تريد، دون أن تحوجني إلى مسيرة ساعات!! فتصنعت الغضب وقلت: يا سبحان الله، أبحث عن حاجتي فأرجع بحاجة سواي!! وقطعت الحديث، فلما رأى الحنظلي أسفي البالغ خرج إلى بني عذرة يطرق الأبواب، ويقول من رأى ناقة سمراء تتظالع في سيرها طرقت هذا الحي من أيام؟ حتى إذا مرَّ بمنزل بئينة قالت في فرحة باسمه: رأيتها يا عماه تطوف بشجرة الأثل أمس عند العشاء!! فمضى الرجل إلى شجرة الأثل فلم يجد شيئاً، وجاء ينبئني الحديث، فشكرت له مسعاه! وانتظرت حتى جاءت العشاء وذهبت إلى الشجرة، فوجدت بئينة هناك!! ففرحتُ بلقائها فرحاً جعلني أطيّر كالعصفور، وقلت في ابتسام: من أنباك أني صاحب السؤال؟ فقالت في دلال: «إن النياق السمر المتظالمة كثيرة، وهي تأتي كل ساعة وتذهب فلا بد أن يكون السؤال على غير مأناه، فأجبت بما قلت»!! فقلت مداعباً ومن أدراك أني سأفهم الجواب؟ فضحكت وقالت: سبحان الله، من يضع السؤال يعرف الجواب!!

فهزَّ عبدالعزيز رأسه في عجبٍ وقال: وارضمتاه: إن للقلوب ألسنة لا تسمعها الأذان فقال جميل موافقاً: هو ذاك!!



ثم حضر شراب الليمون المثلج فشرب المتحدثان
كأسين على رشفات متباعدة، واستأنف عبدالعزيز يقول: قد
والله رحمتك يا جميل حين جاءني الأنباء عنك، ووددت لو
طارت بك الريح إلى مصر فأقنعك ببعض المشورة والسداد!
وطالما كنت أسأل: أليس لجميل أب عاقل ينقذه أو أخ راشد
يهديه؟

فأثقلت دمة سريعة في محجر جميل توشك أن تنحدر
على خده الشاحب وقال في اكتئاب: أبي، ما أبي، لقد أجهد
نفسه في غير طائل، كنت أهيئ في الطريق إلى بني عذرة
فأراه يتسلل خلفي متوسلاً، فأرحم سنه ودموعه، فأرجع معه،
حتى تهدأ أجفانه في مرقدتها بعض الوقت ثم: أهب متسللاً،
فينتبه فجأة، ويتتبع خطاي محاذراً أن يهدر دمي الناس،
ولا أنسى أنه قال لي، ذات عشية، والبكاء يخنق صوته فلا
يكاد يبين أي جميل حتى متى أنت عمة في ضلالك، ألا
تأنف أن تتعلق بذات بعلٍ يخلو بها وأنت عنها بمعزل، ثم
تقوم من عنده إليك فتغرك بخداعها، وتريك الصفاء والمودة
وهي تضرر لبعْلِها ما تضره الحرة لمن ملكها، فيكون قولها
لك تعليلاً وغروراً.. إن هذا الذل مشين.. ولا والله ما أعرف
أخيب سهماً ولا أضيع عمراً منك!!



فتأمل عبد العزيز وجه صاحبه، فرآه يصطبغ بشتى الألوان، فرحمه من أعماقه، ثم سأل في اهتمام وبماذا أجبتَه يا جميل؟! فقال في لوعة: قلت إن الرأي ما ترى يا أبتاه، ولكن هل رأيت أحداً قبلي قدر أن يدفع عن قلبه هواه، أو استطاع أن يمنع ما قدر عليه؛ والله لو قدرتُ أن أمحو ذكرها من قبلي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت؛ ولكن أين السبيل؟

فقال عبد العزيز: وارحمته لك ولأبيك! فتعجلَ جميل يقول في لهفة: بل وارحمته لبثينة، لقد تحملت ألسنة الناس. وهي أنثى ضعيفة. يكرها أب فظ ثقل، وأخ غيور متسرع، وقد تعرضت لسياطهما المحرقة حتى كادت أن تتمزق، فلا والله ما همّت بسلوان أو استكانت إلى ملام!!

فعضَّ الأمير على شفتيه وقال: لو كنت مكان أبيها أو أخيها، لجابهت التقليد البغيض، وزففتها إليك بكل اعتزاز... ثم لا أدري لماذا يسومانها العذاب، وقد تأكدا من طهارتكما، واجتماعكما في ظلال الشرف والوفاء!

فردَّ جميل كالمأخوذ: ومن أنباك يا مولاي بتأكدهما من طهارتي، وهما مرتابان يتسرعان؟

فأجاب عبد العزيز في تودة: بلغني أن جارية وشت بكما! إليهما ذات ليلة، فقدما يسترقان السمع في الظلام،



وكنتما تتناجيان ببعض القول، فعلما عن طهارتكما ما يعجب
ويزين، وقال أبوها لأخيها.. قم بنا فما ينبغي أن نكدر
هذين!!

فقال جميل - وقد نظر نظرة شاردة - لقد حدث ذلك يا
سيدي، ولكنهما لم يتقيّدا بما رأياه، بل انقلبا بعد ساعات
يسومان ابنتهما الضعيفة أحر العذاب ويزعمان أن الحديث
مُعَدُّ مُهَيَّأ، ولم يكن خالصاً لوجه الشرف والعفاف!

فأطرق الأمير في تفكير، ثم قال بعد لحظات: أصدقك
القول يا بني، هما معذوران فيما يتوجسان مهما تأكدا من
الطهارة والنقاء؛ إن ألسنة الناس تجعل الصباح المشرق
ظلاماً حالك الجنبات؛ وقد خاض في عرضهما الخائضون
فالتهب الصدور بالأحقاد!! وكم ساءني أن تدفع حبيبتك
إلى الاتهام الفاضح، دون أن نقدر ظروفها المحرجات مع ما
بينكما من صباية رابعة أوردتكما موارد الوبال؟

فوقف جميل مرتاعاً كمن لدغته عقرب بغتة، ثم أدرك
تسرّعه فجلس متضايقاً وقال: كيف دفعْتُها إلى الإتهام
الفاضح يا مولاي؟!

فردّ عبدالعزيز يقول: لقد نقل إلى الراوون أن أهل بثينة
شاءوا أن ينفوا عن ابنتهم ما تذيعه من وجدٍ وهيام، فأعلنوا



أَنْكَ لَا تَحِبُّ بِثِينَةَ نَفْسِهَا وَلَكِنْ تَهِيمُ بِجَارِيَتِهَا السُّودَاءَ.
فَغَضِبْتَ لِنَفْسِكَ، وَوَاعَدْتَ صَاحِبَتَكَ عَلَى الْإِلْقَاءِ فِي بَرْقَاءِ ذِي
ضَالٍ، ثُمَّ مَنَعْتَهَا الْمَسِيرَ حَتَّى انْبَلَجَ الْفَجْرُ لِيَرَاكُمَا النَّاسُ!!
وَطَافَ بِهَا الطَّائِفُونَ لِيُؤَدُّوا عَنْهَا شَهَادَةَ بِلِقَاءِ!!

فَقَالَ جَمِيلٌ فِي أَنْفَعَالٍ يَتَحَرَّقُ بِصَاحِبِهِ كَذِبٌ مَا نُقِلَ
إِلَيْكَ يَا مَوْلَايَ، وَاللَّهِ مَا اقْتَرَفْتُ ذَلِكَ الشَّنَّارَ، وَلَئِنْ فَعَلْتُ مَا
رَوَيْتَ، لَرَمَيْتُ نَفْسِي مِنْ قِمَّةِ شَمَاءٍ!!

فَأَجَابَ الْأَمِيرُ مُشِيرًا بِيَدِهِ: صَبِّحْ يَا جَمِيلُ، فَالْقِصَّةُ لَمْ تَنْتَهَ
بَعْدَ لَقْدٍ رَدَدُوا لَكَ شَعْرًا تَقُولُ فِيهِ بِشَأْنٍ مَا ذَكَرْتَ:
وَمَنْ كَانَ فِي حَبِي بَثِينَةً يَمْتَرِي فَبَرْقَاءِ ذِي ضَالٍ عَلَى شَهِيدٍ
فَأَيُّ شَيْءٍ شَهِدْتَ عَلَيْكَ بِهِ بَرْقَاءِ ذِي ضَالٍ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ
ذَلِكَ؟

فَتَنَهَّدَ جَمِيلٌ تَنَهَّدًا شَفَّ عَنْ مَرَارَةٍ لَازِعَةٍ، وَقَالَ فِي
هَمْسٍ: هَكَذَا تُحَرِّفُ الْأَقْوَالَ، لَقَدْ زَعَمَ الْمَغْرُضُونَ لِبَثِينَةٍ أَنِّي
أَلْعَبُ بِهَا دُونَ هَوَى مَخْلَصٍ فَقُلْتُ قَصِيدَتِي الطَّوِيلَةَ أَفْصَحَ
بِهَا عَمَّا أَكُنْ مِنْ تَبَارِيحٍ، وَاسْتَشْهَدُ بِمَارِحِ الْأَنْسِ وَمَلَاعِبِ
الذِّكْرِيَّاتِ، وَمَنْ بَيْنَهَا بَرْقَاءِ ذِي ضَالٍ.

فَتَبَسَّمَ عَبْدُ الْعَزِيزِ، وَقَالَ مَلَاظَفًا: رَجَوْتُ لَوْ نَشَدْتَنِي قَصِيدَتَكَ
هَذِهِ، إِذْ لَمْ يَأْتِ إِلَيْنَا فِي مِصْرٍ مِنْهَا غَيْرُ هَذَا الْبَيْتِ الْيَتِيمِ!



فرفع الشاعر رأسه في اعتداد، وقال سيد الأمير قد آليت
على نفسي ألا أنشد قصائدي للناس، كيلا أتخذ الأكيد
من حبي مطية للخطوة والاشتهار وإني لمستمسك بقسمي
الأكيد، فلا يكن في صدرك حرج من هذا الإباء!

فدق الأمير كفاً بكفٍ وقال متعجباً: وكيف يعرف العرب
قصائدك، إذا أقمست ألا ترونها للناس؟!

فعجل الشاعر يقول: تختلج في صدري العاطفة المتوثبة
فأقول القصيدة كما تجيء دون تنقيح وتهذيب، ثم أتركها
للرواية ينقلها لمن يريد، دون أن أقوم لنفسي بالإذاعة
والإعلان!! وقد أخذت العهد على لساني ألا ينطق ببيت من
الشعر في غير الغزل العفيف حذار أن أنحط بموهبتي إلى
وهدات التملق والاكتماب!!

فأظهر عبدالعزیز عدم الإكتراث بما سمع، وقال في
تودد: إذا أردنا أن نسمع بمصر شيئاً من غزل العرب في
البادية فما نصنع في قسمك يا جميل؟

فقال جميل في بساطة، ذلك شيء يسير! أنشك قصيدة
من غزل صاحبي كثير عزة، وإنه لمعجب رصين!!

فهز الأمير رأسه متمهلاً، وقال في دعابة متكلفة؛ كثير
عزة راويتك وتلميذك كما أعرف من قديم. ولكن شعره



لا يجري في واديك؛ وقد سمعت ما سمعت من غزله فما
خرجت بطائل يا جميل!!

فأظهر الشاعر تحمساً لصاحبه؛ وصاح في اهتمام: اسمع
يا مولاي قول كثير؛ ثم احكم عليه حكم الفاحص المستجيد!
يقول العدايا عزّ قد حلل دونكم شجاع على ظهر الطريق مصمم
فقلتُ لها والله لو كان دونكم جهنم ما راعت فؤادي جهنم
وكيف يروع القلب يا عزّ رائع ووجهك في الظلماء للسفر معلم
وما ظلمتكَ النفس يا عز في الهوى فلا تنقمي حبي فما فيه منقّم

فتبسّم الأمير تبسم المرتاح ثم سكت قليلاً وقال، أخالك
قد رويت من شعر صاحبك أحسنه وأرقاه، ولكن اسمع إن
شئت قوله:

ألا لیتنا يا عزّ من غير ريبة بعيران ترعى في الخلاء ونعزّب
كلانا به عزّ فمن يرنا يقلّ على حسنّها جرباء تُعدي وأجرب
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله علينا فما ننفعك تُرمي ونضرب
وودتُ وبيت الله أنك بكرة هجان، وأني مصعب ثم نهرب
نكون بعيري ذي غني فيضلنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

أفكان هذا القصيرُ الدميمُ عدوّها أم حبيبها حتى يتمنى
لصاحبته الرقّ والجرب، والزنى والطرد والمسوخ! أفهذا
إحساس صاق يا جميل؟!



فتنمر الشاعر - كمن يستعد للوثوب - وقال في حدة: إنه
إحساسٌ صادق أيها الأمير، وأن يدركه غير عاشق محروم،
لأن العاشق يعبر عن خلجات نفسه في الصورة الأنيسة
الحبيبة إذا هدأ، وقد تتخبط عاطفته في مأزق نفسي، إذ
يتعرض لساعة عاصفة قاتمة تميد برجائه، فتمنحه الصورة
المنقبضة الملتاعة، وهو في كلتا ساعتيه صادق مخلص إذ
يرسم ما انطبع في خاطره من غير وصحو واضطراب وهدوء
وسعادة وحرمان، أفترجون - سامحكم الله - من الشاعر
أن يسكت عن سخطه وضجره، فلا يتكلم من غير الرضا
والامتنان؟! قد تطلبون ذلك من السياسي المرن! ولكنكم لا
تجبرون عليه العاطفي المهتاج!

فتطلع الأمير إلى صاحبه وجاش بنفسه سؤال ظن أنه
سيقطع على جميل منافذ القول فلا يستطيع الاسترسال،
فقال: وأنت تتعرض دائماً لعواطف الهجر والإنفعال، فلماذا
لا تصوّر ما صوّره هذا الدعيّ في غزلك الملتاع!!

فردّ جميل يقول: لقد عنفت والله أكثر مما عنف كثير
فقلت:

رمى الله في عيني بثينة بالقذي وفي الغرّ من أنيابها بالفواح

وقلت عن نفسي متمنياً ما لا يتمناه عاقل:



ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى عليّ كلامها
فاهتزّ الأمير اهتزازة المعجب، وقال في ابتسام، لقد
أنشدت شعرك يا صاح ووقعت في الشرك كما أريد، على
أنك أحسنت الدفاع عن تلميذك وروايتك ثم ضحك وقال:
وأظنه أحسن إليك يوماً ما في بعض شؤونك مع صاحبتك،
فبادلته المحبة الوامقة والثناء المستطاب!

فأسرع جميل يقول إن إحسانه في هذه الناحية كثير وفير،
ولن أنسى - مهما نسيت - أنه كان يأتي والد بثينة فيجالسه
ويداهنه حتى يأنس به، ثم يروي له من شعره الرقيق لتسمع
بثينة داخل المنزل فتشير بحركة مستترة أو لفظ عارض بما
يهيئ له سبيل اللقاء!! فأنعم بما أود!

فتعجل الأمير يقول سأتعبك يا جميل وأطالبك بشاهد

يسير.

فنظر الشاعر نظرة المرتاح، ثم ضحك في خفة وهو
يقول: لا تعب في سحرك يا سيدي كما تظن!! بل إني لأسعد
حين أروي لك شاهداً يسيراً، فأذكر أن بثينة سمعت إنشاد
كثير ذات صباح، فقذفت في الفضاء بحجر، وسألها أبوها ما
هذا يا بثينة، فقالت في بديهة حصيفة: لقد رأيت كلباً يأتينا
من وراء الرابية إذا نَوّم الناس فرميته بحجر ثقيل!! وأشارت



إلى كلب يعدو من بعيد، فعرف كثير أنها حددت الزمان
والمكان في موعد حبيب، ورجع إليّ بأهناً نبأ وأشهاه!!

فضحك الأمير ثم قال: وهذا مثال ثانٍ يدل على ذكاء
بثينة، أضيفه إلى ما سبق من واقعة الناقة السمراء!

فتبسم جميل ثم قال: وهو أيضاً مثال رائع يدل على
ذكاء كثير العزيز!! فضحك عبدالعزيز ثانية وقال: ولعلك
لإخلاصه وحده تحب شعره يا جميل: فردّ الشاعر في أدب،
لك أن تظن ما تشاء يا سيدي الأمير!!

ثم دخل الحاجب يدعو سيده إلى الطعام، فدعا جميلاً
إلى مأدبة فتمنّع في أدب، فأقسم عبدالعزيز أنه سعد بمجلس
الشاعر سعادة يحسد عليها الأيام، وأن جميلاً لن يترك قصره
بحلوان ما دام مقيماً بمصر، ففيه مقيله ومأكله ومثواه،
فخضع الشاعر للقسم الصريح، وأقام أسابيع معدودة ممتعاً
برعاية الأمير وعنايته ثم ثقلت عليه العلة فلم تجده عناية
الأمير وحذق الطبيب، وخرج عبدالعزيز باكياً يشيع جنازة
عاشق ملتاع ضاق به وادي القرى فأبقى عصاه مستريحاً في
وادي النيل.

خَصَمٌ عَنِيدٌ



كان عبد الملك بن مروان يجلس في ساعة من ساعات ضيقه وقلقه بقصر الخلافة متأملاً مفكراً وعن يمينه عمرو بن سعيد بن العاص وعن يساره أخوه بشر بن مروان!! وكان الحديث يجري عن سيطرة عبد الله بن الزبير على العراق والحجاز.. وكيف طاول عبد الملك وأعياءه.. حتى نفدت الحيل وقلّ الرجاء، فقال بشر لأخيه: يا أمير المؤمنين إن أفعال يزيد قد تركت الحجاز جمرة تشتعل، وليس بمعقول أن تهدأ النفوس هناك فتتهفو إلينا مشاعر أهل الحرمين، وهم يعلمون أننا يوم الحرة أبحننا المدينة ثلاثة أيام بعد قتال عنيف، فنهبت الأموال وأزهقت الأرواح! وتشكف انتصارنا عن تهور فاضح هتكت به الحرمات! واندلعت الأحقاد!!

وانبرى عمرو بن سعيد يقول: ولم يقف الأمر عند المدينة بل زحفت جنودنا إلى مكة فأوقعت أهلها في حصارٍ



شديد، وقاوم عبد الله بن الزبير جيوش الخلافة مقاومة بارعة
فأحبه المكيون والمدنيون، وحفظوا له يده البيضاء في الذود
عن الحرم وحماية البيت العتيق!!

فنظر عبد الملك إليهما ثم قال: نظلم يزيد إذا حملناه
ملامة في ذلك إذ أخرج في أمره وسُب في أخلاقه فارتضى
الأسنة مركباً غير ذلول!!

لقد رفض المدنيون بادئ ذي بدء بيعته وجأهروه
بالعصيان، فأرسل إليهم الأموال واستقدم منهم الوفود فما
نزلوا بساحته حتى غمرهم بالاعطيات الجزيلة والثراء الباهر،
وظن أن هؤلاء الذين قبلوا نعمته سيكونون أسنة مخلصه
تهتف باسمه وتنشر أمداحه! ولكنهم انطلقوا بالمدينة
يكفرون آلاءه ويلعنون خلافته! ويقولون لحاه الله من صاحب
لهو وشراب وحيوانات وغناء! ثم يستمطرون عليه اللعنات
فأضرموا الثورة في النفوس!! وزعزعوا دعائم الاستقرار..
ووالله لو كنت مكانه ما صنعت غير الذي كان.

فقال بشر في أدبٍ يراجع أخاه: رويدك يا أمير
المؤمنين، فنحن لا نلوم يزيد أن حارب أهل المدينة حتى
أذعنوا لخلافته! ولكننا نلومه أن بالغ في النعمة وأسرف
في الانتقام، فحين قطفت جيوشه ثمار النصر تجبر قائدها



الغاشم مسلم بن عقبة!! وأسرف في القتل إسرافاً منكراً
وأباح المدينة ثلاثة أيام لمن ينهب ويسلب ويهتك!! وقد
كان في الإعضاء سعة! وفي التسامح تهدئة واستتباب!!

فقال عبد الملك معقبا: حتى إن مسلم بن عقبة قد جاوز
الحدّ فألهب الصدور.. وما أظن يزيد قد دفعه إلى ذلك ولكن
نشوة النجاح قد أعمته فتنبك عن الطريق.

فردّ عمرو بن سعيد بن العاص يقول: لقد كنت يا أمير
المؤمنين والياً على المدينة من قبل يزيد، وسُيستُ الناس
بالملاينة والاحتيال، فغضب يزيد عليّ! وأوصى مسلماً
بالانتقام والإرهاب فهما بلا شك شريكان فيما كان.. وإذا
مصرع الحسين قد ألهب علينا النفوس إلهاباً نعاني من
صعابه ما يؤرق ويخيف فإن استباحة الحرمين الشريفين قد
أمدت الضرام بضرام آخر فما ينقطع له لهيب!

فالتفت عبد الملك إلى أخيه بشر وقال في غيظ: وقد
انتهز ابن الزبير كل سانحة تحين، فجمع حوله الناس وبنى
لنفسه ملكاً عجز عن إنشائه الحسين ابن علي! وهو من هو
بين العرب والمسلمين!! فعبس بشر في أسف وقال: صدقت
يا أمير المؤمنين فابن الزبير داهية أريب وقد حدثته نفسه
بالخلافة منذ استخلفه عثمان رضي الله عنه على داره قبل مصرعه!!



فقال في نفسه لا بد أن أجالد عليها القوم.. وإني لأعلم أنه - وحده - هو الذي حمل أباه الزبير على شقاق علي، كما استطاع أن يؤثر على خالته عائشة فقادها يوم الجمل إلى حرب عادت عليها بالخذلان.. أفكان يعارض علياً ويخضع بعد ذلك لبني مروان!!

فقال عبد الملك بعد تفكير مقلق: ما أظن أحداً أدرك خوافي ابن الزبير كما أدركها معاوين بن أبي سفيان.. فقد لمس تطلعه للسيطرة، وأدرك ما يثور في أطوائه من ترصد وارتاقب فجاهده وأوعده، وأوصى يزيد بالحيلة منه!! فيا له من خليفة بصير..

فرفع عمرو بن سعيد رأسه كمن يستأذن في الحديث - فقال له عبد الملك وقد حدجه ببصر نافذ - أرى على شفئك كلاماً يا عمرو فماذا تريد!!

فقال عمرو في تأدب مصطنع: أحب أن أؤكد ما قاله أمير المؤمنين، فقد سمعت معاوية يناقش ابن الزبير بمكة في أمر البيعة ليزيد، وقد أطرق القوم حائرين لا ينبسون واندفع عبد الله يقول: «نخيرك يا أمير المؤمنين بين إحدى ثلاث أيها أخذت فلك رغبة وفيها اختيار، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله ﷺ، قبضه الله ولم يستخلف، فدع هذا الأمر حتى

يختار الناس لأنفسهم، وإن شئت فاصنع ما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل بعيد، وترك من ولده ورهطه الأذنين من كان أهلاً لو أراد، وإن شئت فاصنع ما صنع عمر بن الخطاب فقد صيّرهما إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم وترك ولده وأهل بيته وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً» فكلف معاوية البشر واتجه بنظره إلى الحسين بن علي وقال لابن الزبير: «إياك أن تقع في عرائين عبد مناف، أما والله لئن دفعت في بحور بني هاشم وأمية لتغطنك بأمواجها ثم لتوهين بك في أجاجها».

فتلفت عبد الملك يسأل عمرو بن سعيد: وهل سكت ابن الزبير بعد هذا التحقير!! فلجلج عمرو قليلاً ثم تشجع يقول في اهتمام: ليته سكت يا أمير المؤمنين! لقد غلبته سلاطة لسانه فاندفع يقول بمرأى ومشهد من الناس: أسألكم بالله أتعلمون أن أبي حواري رسول الله وأنا أباه أبو سفيان وأن أُمِّي أسماء بنت أبي بكر وأمه هند آكلة الأكباد، وجدي الصديق وجده المشدوخ بيدٍ ورأس الكفر، وعمتي خديجة وعمته أم جميل زوجة أبي لهب وخالتي عائشة أم المؤمنين وأنا عبد الله!! فبهت معاوية وانتقل بالحديث إلى غرضٍ بعيد!!



اكتأب عبد الملك لما جاء على لسان عمرو فهو يعرف
من دخيلته ما يوحى بشماتته وحقده وها هو ذا ينتقض
معاوية على لسان ابن الزبير ليجرح الخليفة من طرف خفي،
وكأن بشراً لاحظ ما يدور بنفس الخليفة فعجل يقول:

«لقد سمعتُ ما قلته يا عمرو.. وأزيدك أن معاوية اجتمع
به ليلين قناته الصليبة في أمر يزيد فأطرق مفكراً ولم يجب،
فقال له معاوية: ما لي أراك مطرقاً إطراق الأفعوان في أصول
الشجر، فرد في سرعة جاهدة أنا أناديك ولا أناجيك، أخوك
من صدقك القول لا من كذبك الحديث ففكره في الأمر قبل
أن تندم يا أمير المؤمنين».

فقال عبد الملك يعقب على صاحبيه: إن إنساناً أتعب
معاوية وأحرجه، لا بد أن يتعب عبد الملك ويضنيه!!
ثم نظر إلى عمرو ولم يتكلم فتقابلت العينان لتفصحا
عن سرٍ كظيم ولكن بشراً يوجه الحديث إلى عبد الملك
ويقول ملاطفاً.

لا عليك يا أمير المؤمنين.. فسحابة ابن الزبير ستنتشع
عن قريب.. ولئن انتصر معاوية على عليّ في مكانته ورئاسته
وسابقته فمثلك من يستطيع سحق ابن الزبير بجهد يسير..
فنظر عبد الملك إلى أخيه ثم قال: لقد انتصر معاوية على عليّ



لأن ابن أبي طالب - شهد الله - صريح لا يمالئ ولا يخادع أما
ابن الزبير فمراوغ خداع يناديك من اليمين ويثب عليك من
الشمال وفي موقفه الأخير من العراق ما يعطي الدليل.

فتعجل بشر يسأل متجاهلاً وماذا أتاك عن موقفه بالعراق
يا أمير المؤمنين؟

فزفر عبد الملك كمن ينفس قليلاً عن برج كظيم وقال:
لقد لمس ابن الزبير موجة الندم على مصرع الحسين تغمر
النفوس فشجع المختار الثقفي على قتال ابن زياد فقذف
المختار بعدته وقوته وجالد بشيعته وذويه حتى أدرك النصر
وقتل صاحبنا في عرينه ثم حمل رأسه إلى ابن الزبير بمكة
واستتب له الأمر بالعراق فأصبح صاحب الكلمة الأولى وإذ
ذاك تألب عليه ابن الزبير فأشاع عنه الأراجيف وملاً الجو
حوله بالسموم!! حتى شكّ الناس في أمره وغايته!! ولم
يلبث أثناء هذه البلبلة المضطربة أن بعث إليه بمصعب أخيه
فأخذه على غرة وقتله مع أكثر من معه! ثم أعلن نفسه حاكماً
على الكوفة وأصبح العراق والحجاز من الآن في حوزة
الزبيريين!!

فقال بشر مغتاضاً: ولماذا سكت الخليفة عن الفريقين
دون أن ينتهز هذه الوقائع فيسير بها إلى ما يرضيه!!



فعجل عبد الملك بقوله: هما عدوان لدودان فلنترك أحدهما يأكل الآخر فإذا افترسه وخرج من الحومة متعباً، توجهنا إليه بإذن الله! وهذا ما أفكر فيه!!

فقال عمرو بن سعيد في تخابث، حيا الله أمير المؤمنين ووفقه فيما يريد!! غير أنني أحاذر أن يمتد الحبل لمصعب في الكوفة فتثبت دعائم أركانه هناك ويشد عضد أخيه بالحجاز فتصبح منهما على خطر عظيم، وإذا كان لي بعض الرأي لدى الخليفة فإني أرى المبادرة في السير إلى العراق لنجالد الزبير بين..

فنظر عبد الملك إلى عمرو كمن يستشف في نفسه مكيدة تنسج بخيوطها تحت أستار الظلام.. ثم طوى ما هجس في نفسه من شك في صاحبه وقال متجاهلاً:

إن الخوارج لن يسكتوا عن مصعب وقد جائتني الأنباء أن القتال بينهم سجال!! فلنترك هذا الظافر المنتصر يصطدم بعدوه الجديد.. ولتعلمن نبأه بعد حين.

فقال بشر مندهشاً: هل اختلف الخوارج مع ابن الزبير يا أمير المؤمنين؟ لقد كان يرمض أحشائي أن أجدهم على وفاق أكيد...

فقال عبد الملك في صدق: يا بشر، أنت تعرف خبث ابن



الزبير وقد مالاً القوم في مبدأ أمره فأوهمهم أنه ينشد الحق الذي ينشدون.. واستمال فريقاً منهم بدعوى الصلاة والزكاة والخشية من الله.. ولكن فريقاً آخر قد اكتشف طويته ففضحوه بأسئلتهم المحرجة. وتكشفت الإجابة عن شقاق عنيد..

فأسرع بشر يقول متهللاً: لقد خفي عني ما جدّ من أمر الخوارج مع ابن الزبير فماذا عند أمير المؤمنين.

فاعتدل الخليفة في مجلسه ونظر إلى أخيه نظرة مخلصة وقال: جاءتني أنباء الأمس أنهم أخرجوه بالأسئلة الصريحة فسألوه عن رأيه في أبيه الزبير وفي عثمان وطلحة وعلي وعائشة، فأهلهم بعض أيام وهم لا يرضون منه بغير تكفير الجميع... حتى إذا ضيقوا عليه سبيل الانتظار، قال في خداع ماكر: «إن الله أمر في قتال الكافرين بأرأف مما تودون»، فقال لموسى وأخيه في فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]، وقال ﷺ: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات»، فنهى عن سب أبي جهل من أحل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو الله وعدو رسوله الأمين، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أنبراً من الظالمين، فإن كانا منهم دخلاً في غمار الناس، وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسبب أبي، وهذا الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده،



وليس يقنعكم إلا التصريح ولن أَرْضَى به فتفرق عنه القوم
ناقمين، وحاربهم مصعب فباء منهم بشر مستطير!

فقال بشر في فرح: الحمد لله، لم ينفع ابن الزبير احتياله
الدقيق فارتطم بطرد مكين!! فقال عبد الملك، معقباً على أخيه
وسأتهياً بجند الشام، للخروج إليه في مأزقه فيقع بين أسدين
كاسرين وأغنم الفوز عن قريب.. ثم رفع عينيه إلى عمرو،
وقال في تطلع كنّ معنا يا ابن سعيد!! فأنت منا ونحن منك!!
فاضطرب عمرو كمن أحسّ سهماً يتوجه إليه، وقال
في حيرة: أنا فداء أمير المؤمنين.. وأدرك بشر ما يجول في
خاطريهما عن فراسة صادقة!! فاستأذن من أخيه كي ينهض
مع عمرو في جولة بالغوطة بعد أن تشعب الحديث.
وقام الرجلان فودعهما أمير المؤمنين.



توجه عبد الملك بعد أيام بكتائبه العديدة إلى العراق،
ولم يتجاوز أرباض عاصمته حتى جاءه النبأ بثورة
عمرو بن سعيد عليه في دمشق، واغتصابه إمارة المؤمنين
واحتلاله قصر الإمارة فدعا بشراً أخاه، وقال له في أسفٍ
حائر: لقد قرأتُ والله ما بنفس هذا الأثم المجترئ ليلة



اجتمعنا معاً بدار الخلافة، نتناقش في أمر ابن الزبير ولمحت في تخاوص عينيه دليل الغدر والخيانة، وأفهمته حينئذٍ عن طريق التلميح ما وقع في نفسي منه!

فقال بشر وقد أردكت ذلك يا أمير المؤمنين، فعجلت بالانصراف معه إلى الغوطة وأخذت أتصرف معه في شجون من القول لأستديم ولاءه فما انصاع إلى قبول، وإني أطمع أن يوفدني أمير المؤمنين الآن، فأعرض عليه - خديعة واحتيالاً - ولاية العهد فأستميل خاطره ثم أرى ما يتكشف عنه عناده الغدور فقال عبد الملك في انقباض متجهم.. عليك به إن شئت فأبلغه ما تريد.

تابع الجيش الشامي سيره إلى الكوفة يقوده عبد الملك مبدياً من البسالة والصبر ما بعث في نفوس قومه كثيراً من التفاؤل والإقدام، وقد التزم سياسة التواضع والرفق، فكان يسأل كل جندي من رجال عن مأمله ومبتغاه وتبسط في الحديث مع السوق حتى ضمن إخلاصهم ووفاءهم!! ولم يشأ أن يشن الحرب فجأة على مصعب، فتتلاحم قوتان متكافئتان، إحداهما غريبة نائية لا تعرف منعرجات الطريق وملتمسات النجاة، والأخرى قريبة تملك من المعرفة والدربة ما تجوز به التفوق والانتصار، بل لجأ إلى الحيلة والدهاء..



فبعث بعيونه إلى أجناد مصعب يستوضحون أمره. ويكتشفون غوامضه، وأتوا إليه يعلنون ما شاهدوه في نفوس الجند من التذمر والغضب، فالأمير الزبيري كأخيه عبد الله شحيح بخيل لا يجود عليهم بغير ما يمسك الرmq من الكفاف الضئيل، وقد سئموا معاناة التقشف ومكابدة الحرمان!

فأخذ عبد الملك يفكر في الأمر تفكير المنتهز المباغت، واستعرض ما حمله من أوساق الذهب وأحمال الفضة، فرأى شيئاً كثيراً يبهر العيون ويجذب الأعناق، فبعث بكتبه إلى قادة كتائب مصعب وإخوانه!! وجعل يمّني كل قائد بالولاية ويغريه بالذهب، حتى انجذبت إليه النفوس عن رغبة واحتفال.. وجاءت إليه ردود القوم تعلن ولائها الخالص وانضمامها إلى جيش الشام حين تأزف الساعة المنتظرة، ولم يشذ عن القواد غير إبراهيم بن الأشتر، وقد أثر الوفاء على الغدر ولم يأخذ مقلته بريق النضار أو تملّ بنفسه أحلام الإمارة.. فعرض كتاب عبد الملك على مصعب وأخبره خبر زملائه من القواد، ثم اقترح عليه أن يبيدهم بسيفه كيلا يفسدوا الجيش إذا دارت الرchy وحمي الوطيس، ولكن مصعباً خاف العاقبة وتريث في الأمر حتى يهتدي إلى السبيل، ولم تلبث أن فاجأته جيوش عبد الملك فتزعم الجند وأبدى من ضروب البسالة والحمية ما أكبره به أعداؤه ومبغضوه!! ولكن الخيانة تتطلع



برؤوسها، وشعاع المال يجذب إليه قلوب ذوي المطامع
فخذله أعوانه في موقفه الحاسم ومأزقه الكريه!! ونظر فإذا
القلة القليلة من ورائه والكثرة الكاثرة إلب عليه مع خصومه..
فغامر بروحه ونال الشهادة كريماً مهيباً لم تُخفض له رأس،
أو يلحقه هوان.. ثم دخل عبد الملك الكوفة، وقد ضمّ العراق
إلى خلافته فبايعه أهلها طائعين راغبين فخاطبهم مبتهجاً
بما نال، وأرهب ورغب وبشّر وأنذر، ثم رجع مسروراً إلى
دمشق.. وقد أسند إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر ابن
الزبير بالحجاز آملاً أن تحين نهايته عن قريب!!

وطارت الأنباء إلى عبد الله بمكة فلاع مصرع أخيه لوعة
أليمة، وأراد أن يعلن النبأ الفاجع إلى معشره، فصعد إلى
المنبر ليقول بعد أن حمد الله: ألا إن خبراً من العراق أتانا
فأحزننا وأفرحنا، فأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لذعة
يجدها حميمه ثم يرعوي، ذوو الألباب إلى الصبر وكريم
الأجر، وأما الذي أفرحنا فلإن قتل مصعب له شهادة، ولنا
ذخيرة، أسلمه الطغام الصمّ الأذان أهل العراق وباعوه بأقل
الأثمان، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا
الخيار الصالحين!! أما والله لا نموت حتفاً كما يموت بنو
مروان ولكن قمصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف!! ثم
نزل ليأخذ أهبتة لقتال باسل، وكفاح مرير!



وفي يومٍ عابسٍ رهيبٍ تتدفق جيوش الحجاج من الشام والعراق على جبل أبي قبيس بمكة، ثم تنصب على هضابه المجانيق لترمي الكعبة النيران المشتعلة فتهوي عليها بالصواعق والقذائف، فإذا ارتجف الجنود قليلاً لمهاجمة بيت الله صرخ فيهم الحجاج متوعداً وتقدم بنفسه فواصل القذائف غير هباب! فتعطلت مشاعر الحج، وأخذت كتائب الغزاة تُغير على المسالك والدروب فتقتل الشيوخ والأطفال والنساء!! وأقبل أهل مكة خائفين فزعين يطلبون الأمان من الطاغية، وقد أرهقهم الجوع والعطش واللهب بعد حصار ظالم عييد.. ويتحقق عبد الله من نهايته فيفد إلى أمه ذات النطاقين، ويقول في أسفٍ دامع: يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا!!.

فتقول أسماء في صرامة متماسكة: أنت أعلم يا بني بنفسك فإنني كنت على حق، فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك ليلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت!! فيصيح ابن الزبير: والله ما أردت غير رضوان الله ثم يخرج إلى القتال، وقد عزم على الموت ليصبح استشهاده الفاجع خاتمة المأساة!!



ويبحث الحجاج عن فارس نجدّي، يعرف عنه الوثب السريع ليحمل النبأ السار إلى عبد الملك بدمشق فيقابله الخليفة فيخبره الحديث، فيُسّر عبد الملك ويثني على الحجاج ثناء المحب الفخور، ثم يسأل في تشفّ ناقم عن نهاية ابن الزبير فيُجيب الرسول: لقد أبدى مع ضعف عدته وقلة عدده جلدأ صابراً وبأساً عظيماً، لقد ملك عليه الحجاج أبواب المسجد الحرام وحاصره به فأخذ ليلته يصلي ويتجهد، ثم أغفى قليلاً حتى أذن الفجر، فنهض للصلاة وفرغ منها ليستعد للنزال، ويقول للبقية الضئيلة بمن معه: «يا آل الزبير لو طبتم لي نفساً عن نفوسكم كنا أهل بيت عظيم في العرب، أما بعد فلا يرعكم وقع السيوف، غصّوا الأبصار عن البارقة، ولا يلهينكم السؤال عني فلا يقولن أحدكم أين عبد الله ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول، احملوا على بركة الله يا له من نصر لو كان له رجال!».

فنظر عبد الملك إلى رسول الحجاج - وقد لمح تأثير حديثه في النفوس - وقال في عجب: مهلاً يا فتى نجد، فلقد كدت تجذب إلى ابن الزبير أعناق بني قومنا في الشام!! إني لأعرفه صبوراً جباراً، ولكنه رام التي لا يرومها من الناس إلا كل حر معمم، ثم تعلو وجهه ابتسامة المرتاح فيقبل عليه الملاء مهنيين.

جبهة عالية



دخل روح بن زنباع على أمير المؤمنين عبد الملك
ابن مروان متهللاً ضاحكاً، وقال في ابتسام مرح: هيناً لك
يا أمير المؤمنين، فقد خذل الله على يدك عدوك اللئيم
عمرو بن سعيد العاص وبلغك فيه ما تريد!

فقال جليس يتملق عبد الملك ويُجارِيه: ومن
عمرو بن سعيد؟ لقد نصر الله أمير المؤمنين على آل
الزبير بمكة، وشيعة بني هاشم بالعراق، وملحدة الخوارج
بالجزيرة، وعاهل الروم بالمصيصة!! فمن يكون عمرو مع
هؤلاء؟

فأطرق روح، وأخذ مكانه بين الجالسين، ولم يشأن أن
يفوه بجديد!

ولكن عبد الملك يرفع رأسه في اتزان ويقول في وقار



هادئ: لقد كان مصرع عمرو بن سعيد مأساة كشفت معادن الناس فصرت أشك في كثير ممن يداهنون بالحديث.

فنظر القوم بعضهم إلى بعض حائرين، وقد خاف كل سامع على نفسه، فربما عناه الخليفة بما يسوق من تعريض، وعبد الملك داهية حصيف يلفظ الكلمة العابرة فتهدف إلى مرمى بعيد!!

ولكن روح بن زنباع يستجمع شجاعته، ويطمئن إلى ثقة الخليفة به، فيقول في ثبات حازم: أفصح يا مولاي عما تريد!! أي مأساة تكشف لك في مصرع خائن عنيد؟

فاعتدل الخليفة في مجلسه وتطلع إليه القوم في حذر صامت، وقد أرهفوا آذانهم إلى كل حرف يقوله الخليفة، وانبرى عبد الملك يقول:

لقد جاءني عمرو بن سعيد حين استدعيته في أربعة آلاف رجل من أعوانه، معهم سلاحهم الراجب، ولديهم عدتهم الواقية، فأخذوا يطوفون بقصري في ضجيج مُزبد حتى خاف أخي عبد العزيز عليّ، ورجاني أن أصرف الرجل إلى مصر، حذراً من العاقبة المتوقعة، ولكنني قامرت بقتله غدرًا، ورميتُ برأسه إلى ذويه، تسيلُ دماً من فوق الأسوار، ثم طرحتُ معها آلاف الدنانير والدراهم فتشاغل القوم بجمع



المال، وطار كل مأجور بما حمل، وبقيت رأس عمرو في الطريق!!

فردّ روح في دهاء: هؤلاء رعاغ أوغاد، لم يكونوا يضمرون الحب لعمرو، وقد استهواهم بالمال وحده، فحين أتى إليهم من غير طريقه حذلوهم!! أما نحن يا أمير المؤمنين فنعيظك عن هوى خالص، ونبذل أرواحنا في سبيلك طائعين وقد جرّبتها فيما سلف من المآزق، فعرفت من نكون؟ فلا تظن الناس جميعاً بمنزلة سواء!

وقال متملق آخر: إن الفرق بيننا وبين جنود عمرو، كالفرق بين عزة أمير المؤمنين وذلة غريمه! فكيف تقيس فريقاً بفريق!!

فابتسم الخليفة الداهية، ونظر إلى المتكلم نظرة معبرة، وكأنه يقول في تخابث: إخدع غيري فأنا أعرف طبائع العالمين!

ودخل الوليد بن عبد الملك فنهض الحاضرون إجلالاً لمقدمه، وانحنوا برؤوسهم إلى الأرض مبجلين معظمين، فصافحهم في عزة، ثم تقدّم في رزاة هادئة إلى أبيه الجالس على كرسیه يتألق وجهه بالابتسام، فمد يده إلى يده ثم لثمها ثلاث مرات في أدب حريص، والتفت إلى الملاء الواقفين



فدعاهم إلى الجلوس، شاكرًا لهم استقبالهم الكريم...
ثم أعطى الخليفة خطاباً قدم به سفير الروم منذ لحظات!
واستأذن في الخروج فأذن له أبوه، والقوم صامتون يتصفحون
وجه عبد الملك، إذ يتلو الرسالة ثم لا يفوهون بشيء كما
اعتادوا، فقد يكون الأمر من أسرار أمير المؤمنين.

ومضت لحظات فرغ فيها الخليفة من أمره، فطوى
الرسالة، ووضعها في جيبه، والتفت إلى القوم يستمع إلى
الحديث:

فقال قائل من الحاضرين إن في ملامح أميرنا الوليد
مشابه من أبيه، ولا أرى الأمة العربية قد أجمعت على شيء
كما أجمعت على محبته وإجلاله، فبارك الله لك فيه يا سيدي
العظيم...!!

فانتهاز روح بن زنباع هذه المقدمة السارة، ووجه
الحديث إلى ما يعرف فيه سرور عبد الملك فقال: وسيكون
عهده الزاهر بعد أن يبلغ أمير المؤمنين ما يشتهي من عمره
المديد، مجال سعادة للعرب ورفعة للمسلمين، فليجهر
خليفة الله ببيعته في الأمصار دون انتظار، فإن ولاية العهد
شاغرة منذ انتقل إلى رحمة الله سيدنا عبد العزيز شقيق أمير
المؤمنين.



فأطرق عبد الملك إطراقة المفكر، ثم قال في تحايل:
كنت أودُّ أن أرحم الوليد من مآزق الحكم، ومرهقات
السلطان، وأراكم تحاولون أن تخوضوا به فيما أكابد من
لجج غواش، وعواصف قاصفات!!

فردَّ روح بن زنباع في صرامة: هُوَ لَهَا يا أمير المؤمنين،
فالولد سرّ أبيه، وسينعم إن شاء الله بجلال الخلافة الرائع،
ويهنأ بسعادة الاستقرار المكين.

فنظر عبد الملك في وجوه القوم، وقال في هدوء: جلالُ
الخلافة الرائع، وسعادة الاستقرار المكين!!

... أواه.. ليست للخلافة سعادة يا قوم، هأنذا أحارب
الأهوال في ميادينها المترامية، ولا أسكن فتنة العراق حتى
يشغب عليّ الخوارج، ولا أكاد أستأصل الزبيريين حتى ينشق
عليّ أباطرة الروم!! وكل يوم خبر فادح يستنزف الجهد،
ويفري الصم الصلاب، فأين السعادة التي تظنون!!

قال قبيصة بن ذؤيب - وكان من الحاضرين: أنت أسدُّ
يا مولاي، والآساد للشدائد والأزمات!! والوليدُ مثلك،
وسيحمي عرين أبيه!!

فابتسم عبد الملك ابتسامة أشرق بها محياه، ورأى القوم
ما في وجهه من السرور، فأسهبوا في الثناء على الوليد،



وقضوا الوقت في سمرٍ لذيذٍ، حتى إذا حانت ساعة الانصراف أخذوا يستأذنون في الخروج، وينصرفون، مثني وفرادي، وقد استبقى الخليفة روح بن زنباع لديه، فعلم مَنْ بقي من القوم أنه يريد الخلوة به، فنهضوا مسرعين!!

قال عبد الملك في همسٍ: لقد أطمأن قلبي يا روح إلى ما عرضت من أمر البيعة، ولكنني أريد أن تكون طريق الوليد ممهدة معبدة، فلا يصطدم بالأشواك والصخور!

فأجاب روح في اهتمام: أية صخور وأشواك تظن؟ إن جميع أرجاء الخلافة في حوزتك، ولئن طرفت عينٌ واحدة تريد الانتقاض، فلا بد أن ينطفئ نورها دون أن تبصر ما تريد!!

فقال الخليفة في تعقلٍ: لا نزاع في أن الدولة الآن تحت يدي، وجميع من بها في قبضتي أتجه بهم حيث أريد، ولكن السماء تكون صافية زرقاء ثم ينتشر الغمام فجأة فتجلجل الرعود وتلمع البروق ثم تنهمر السيول... ولا بد من عمل حاسم تجمع به الناس قلوباً وضمائر، لا رؤوساً وألسنة على طاعة الوليد! ثم سكت الخليفة... وأطرق روح إلى الأرض يفكر فيما يسمع، ويبحث عن رأي مصيب، ولكن عبد الملك يقطع عليه تفكيره حين يسأله قائلاً: أتعرف سعيد بن المسيب يا بن زنباع؟



فيتنبه روح ويجيب مسرعاً: ومَن لا يعرف فقيه المدينة،
ووارث علم الصحابة، وسيد التابعين!! فيقول عبد الملك:
كيف علمك بحب الناس له وتقديرهم إياه؟

فيرد روح في حماسة: لا أعرف بين العرب إنساناً يملك
قلوب بني الإسلام كما يملكها سعيد، والله لقد شهدت
من طاعة المسلمين له، وإقبالهم عليه، ما لو أمر أحدهم
بأن يرقى إلى قمة جبل، ثم يرمي بنفسه إلى السفح لتهالك
الناس على ذلك، وكأنهم يسرعون إلى جنات ناضرة تجري
من تحتها الأنهار!!

فنظر عبد الملك إلى جليسه ثم قال: هذا هو السلطان يا روح،
إنه سلطان مشاعر وقلوب، لا سلطان رماح وسيوف!! فمن
لي بمثل ذلك للوليد؟... لقد فكرتُ - وهذا سرّ بيني وبينك
- أن أخطب إلى الوليد ابنة سعيد، فإذا أصبح زوجها المختار،
وانتقلت إلى بيت الخلافة بدمشق، وشاع بين العرب أن الوليد قد
ضمن حبّ سعيد، فستخضع له القلوب الأبية، وتتسع له الصدور
المنقبضة، ويصبح - عن حق - أمير الدولة وسيد المسلمين.

فقال روح - وقد استشف بنظرته سريرة أمير المؤمنين،
ورأى الأجد أن يطيعه ويزكي رأيه -: وما يمنعك من ذلك
يا مولاي؟ وهذه أجمل بشارة يمكن أن تزف إلى سعيد!!

فقال عبد الملك مستفهماً في دهاء: من يزفها إليه يا صاح؟ فأسرع روح يجيب: إذا أحرزت ثقة أمير المؤمنين، فإني أعجل بالرحيل إلى المدينة فأقوم بما تريد! فهمس عبد الملك يسرّ إلى صاحبه - وليس معهما أحد، ولكن ليعطيه صورة قوية عن حذره وحيطته - سرّ على بركة الله، ولا تبطئ في المدينة لغير حاجة، فأنا في عجلة تتطلب حضورك السريع، ثم وقف الخليفة ناهضاً... فأدرك روح أن موعد انصرافه قد حان، فتلمس طريقه إلى الباب في تأدب حريص.



شاهد وجوه المدينة روح بن زنباع يسأل عن مجلس سعيد بن المسيب، فيعلم أنه بمسجد رسول الله، فيسرع إلى لقائه في لهفة، ويراه ناهضاً يتلو القرآن في صلاته بين يدي ربه، فينتظر متمهلاً حتى يفرغ من شأنه، ثم يتقدم إلى يده فيلثمها متفائلاً متبركاً، ويقول في أدب خاشع:

أنا رسول أمير المؤمنين؟

فيرد سعيد في تودة: وماذا يريد أمير المؤمنين؟

فيبتسم روح إبتسامة ذات دلالة سارة ثم يقول: جئتك

منه بخير جزيل.



فيرد سعيد دون أن يمهلّه: الخير من الله وحده لا من مخلوق ضعيف!!

فيضطرب روح لما يسمع ثم يتدارك ثباته فيقول: إن أمير المؤمنين أيده الله يقدر منزلتك العالية في المسلمين، وقد رأى أن تكون ابنتك الطاهرة زوجة صالحة لابنه وولي عهده الوليد، وقد بعثني بشيراً إليك فبأي شيء تجيب؟

فيقول سعيد - وهو يهز رأسه - ما شاء الله!! عبد الملك يريد أن يصهر إلي!! انتظري يا بني إلى الغد، حتى آتي الفتاة فأسمع منها الرأي فهي صاحبتة الأولى دون شريك!! فيقول روح في أدب: ومتى أسعد بقلائك الكريم؟

فيرد سعيد في ثقة: غداً في مثل هذا الوقت بمسجد رسول الله!!

فيستأذن روح مترقباً ما يأتي به الصباح القريب.

وخلا سعيد إلى تفكيره فأخذ يتأمل فيما حزه من الطارئ الجديد، ثم قال هامساً وكأنه يجرد من نفسه رجلاً يبادلّه الحديث: إن عبد الملك يريد أن يتخذ مني ستاراً يحجب عن الناس جبروته البغيض، ويسكت الألسنة إذا خاضت في شأن الوليد، وإن هذه الأسرة من بني أمية ما انفكت ترمي الناس بكل داهية ينتهز الفرصة، فيبني مجده الخاص على نثار



الجماجم المتطائرة، والأشلاء المبعثرة، والدماء المراقبة، ولن يكون الوليد أعدل من أبيه، كما لم يكن عبد الملك أعدل من مروان!! وقد ابتلانا الله به والياً طاغياً في المدينة، ثم خليفة جباراً في دمشق، أفيكون ابن المسيب ستاراً يخفي المظالم، ولساناً يدعو إلى البغي والشقاق: ألا حاب سعيد وخابت بنت سعيد إذا كانا مطيتين سريعتين إلى طريق الضلال، لن أبلغ بالرجل ما يريد مهما تخابث واحتال...

ونظر سعيد فيمن حوله فرأى تلميذه الفقير الواهن عبد الله بن وداعة يتقدم إليه، فسأله أين كنت يا عبد الله؟ لقد تلمستك من ثلاثة أيام، فلم أعرف عنك شيئاً يا صاح؟ فقال التلميذ في انكسار: لقد ماتت زوجتي منذ يومين بعد مرضٍ طويل.

فردَّ سعيد: إنا لله وإنا إليه راجعون! ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها، أو بموتها فنشهد جنازتها!!

فقال عبد الله: لقد استحييت أن أتعبك يا سيدي الكريم. فنظر إليه سعيد متسائلاً: ألك رغبة في الاقتران بغيرها يا عبد الله؟

فأجاب في ذلةٍ ضارعة: يرحمك الله يا سيدي، من يزوجني وأنا طالب علم فقير لا أملك غير قوت اليوم!



فأشرق وجه سعيد وقال: أنا أزوّجك ابنتي الليلة، وأكون مرتاح النفس إذ أزفها إلى طالب علم يحفظ القرآن، ويروي حديث رسول الله ويتجنب المحارم ويحذر الشبهات!

فبهت ابن وداعة ولم يجب!! فقال سعيد: أترفضها يا عبد الله؟

فأكب الطالب على قدميه يلثمهما في ذلة ويقول: عفوك يا سيد أين أنا من مقامك الجليل؟

فقال سعيد في حزم: قم فادعُ نَفراً من الأنصار، فأشهدهم على الزواج، فتلکأ ابن وداعة مستحيّاً متحيراً، ورأى سعيد ذلك في وجهه، فصفق بيديه، فحضر رهط من تلاميذه فأشهدهم على ما كان، وأصحبت الفتاة زوجة طالب العلم الفقير، وفي المساء صاحبها والدها إلى منزل الزوج، ومعها الخادم والدرهم والدقيق وبات ليلته مسروراً، وقد ردّ عملياً على خطبة أمير المؤمنين.



أشرق الصباح، وقدم روح بن زنباع إلى المسجد، فسمع الناس يتحدثون عن زواج ابنة سعيد، فأخذ يضرب كفّاً على كفٍ، ولم يشأ أن يقابل الفقيه الورع بعدما صنع، فقد انتهى



الأمر على غير ما يريد... فركب راحلته واستأنف المسير إلى دمشق، وفي نفسه ثورة عارمة على هذا المترفع المتشامخ الذي أثر طالباً فقيراً قميشاً بما رغب فيه وليّ العهد، وسعى إلى تحقيقه أمير المؤمنين... وكان لقاء شاحب مبئس في قصر الخلافة بين الرسول والمرسل، فقد ألم عبد الملك بما كان، وعضّ على يديه غيظاً أن عرّض نفسه لإهانة قاسية، لم يكن يتوقعها من أحد، وطلب إلى زوح أن يكتم الأمر ما استطاع، فلا تقف عليه أذن في دمشق، ثم قال في مرارة كظيمة: وهبني ضمنت لسان روح! فمن يضمن لي لسان سعيد؟!

ودارت الأيام، وأمير المؤمنين يفكر تكفيراً دائماً في الدعوة السريعة إلى مبايعة الوليد، في جميع الأمصار الإسلامية بالعهد من بعده، وقد بادر إلى تنفيذ ذلك متخذاً وسائله السريعة، فتمت البيعة في جميع العواصم العربية دون المدينة... فقد تريث عبد الملك أن يفاجئ حرم رسول الله بما يريد! إذ أن سعيداً سيعلن رأيه بما لا يحب، فيجذب إليه سواد الناس، وتكون فتنة عارمة يتصدع بها ثبات الوليد! وقد عقد الخليفة لذلك مجلساً من خاصته وذوي سره! وطرح الموضوع على بساط المناقشة ليصل إلى حل مفيد!! قال قائل من الحاضرين: وهب أن سعيداً تخلف عن البيعة يا أمير المؤمنين، فماذا يصنع فرداً واحداً بين الملايين!!



فردّ عبد الملك: لو تخلف عن البيعة مئات من رجال السياسة وذوي العصبية، ما أهتمني ذلك في شيء!! إذ أن جميع الناس سيدركون أنه خلاف شخصي لا صلة له بالشرعية الإسلامية!! ولكن تخلف سعيد وهو رأس العلماء في عصره مدعاة إلى لجاج كثير.

فقال قائل ثان: لقد بايع عشرات الفقهاء في كل حاضرة من حواضر الإسلام، فإذا اتفق هؤلاء جميعاً - وهم حماة الشريعة ودعاة الملة - على البيعة للوليد، أفيؤثر علينا تخلف سعيد!!

فأجاب أمير المؤمنين في صرامة حاسمة: يا قوم، سعيد عالم مدينة رسول الله، وإمام أهل الملة بالحجاز، وأثره الديني والروحي لا يتعلق به متعلق، فأتركوا بربكم هذا القياس!!

فقال قائل ثالث: لنأخذ رأيّه أولاً على انفراد فعساه يلين!!

فقال عبد الملك في أسف: هيهات... لقد حاولت ذلك مرات، فوقفت على ما لا أتحمل! وتلك ثغرة أحاذر أن تتسع ذات الشمال وذات اليمين!

فأطرق القوم ساهمين، ولاحظ أمير المؤمنين ما يرين عليهم من القنوط، فقال في حدة: لا بد من الحزم



السريع، لن أدعوه إلى المبايعة كغيره من الناس، بل أشير عليه بالسكوت إذا تلا القارئ كتاب البيعة في المسجد الشريف، فإذا لم يشأ ذلك، فليلتزم منزله يومئذ فلا يفتد إلى المسجد حتى ينتهي الأمر فإذا أصر على ملازمة المسجد، فلينتقل من مكانه المعتاد إلى ناحية أخرى، فيأتي الرسول إليه فلا يراه وفي ذلك كله تهوين عليه وتجنب للخلاف!!

فقال قائل مريب: وإذا ركب رأسه وأراد التنديد فماذا تصنعون؟

فصاح الخليفة مغتاضاً: آخر الدواء الكي، ولا بد مما سيكون.

فأمن القوم على ذلك، وانفرط العقد إذ بادروا بالخروج بعد قرار حاسم في أمر سعيد.



وجاءت رسل البيعة إلى يثرب، فتقدم هشام بن إسماعيل والي المدينة إلى سعيد يعرض عليه ما اقترحه أمير المؤمنين في شأنه، وقال له في استعطاف: لقد قبل الخليفة أن يقرأ الكتاب بالمسجد فلا تتكلم بلا أو نعم!



فقال سعيد محتدأً: سيقول الناس بايع ابن المسيب إذ صمت!!

فقال هشام: لقد قبل الخليفة أن تجلس في بيتك حينئذ فلا تشارك المجتمعين بالمسجد.

فأجاب سعيد في استخفاف: ما أنا بفاعل، كيف أسمع المؤذن يقول: حي على الصلاة، ثم لا أبادر بالذهاب!

فكتم هشام غيظه المنفعل في حدة ثم قال: لقد قبل الخليفة أن تنتقل من مجلسك إلى غيره، فإذا جاء الرسول فلم يجده أمسك عنك!!

فقال سعيد في سخرية: ما أنا بفاعل، أخوفاً من مخلوق احتال على التهاون والإغضاء!! فأنصرف الوالي يائساً يفكر في الخطوة الأخيرة وإنها لذات عقابيل..! وكان ما لا بد أن يكون.. فقد حانت الساعة الحاسمة، وارتفع الصوت المؤمن بالمعارضة، فسيق الشيخ الواهن إلى العذاب، وضرب بالسياط ضرباً مبرحاً، وصب الماء على جسده النحيل حتى أغمي عليه، ثم حبسوه!

وطارت الأنباء إلى مجلس عبد الملك وقد تحلق حوله ذوو مودته فتعجب تعجباً شديداً من صلابة سعيد وعناده، وتزلف إليه مستمع مداهن، فسأل أمير المؤمنين في تعجب:



لماذا لم يبايع هذا الشيخ الخرف سيدنا الوليد، وليس بدمشق غيره من أولى النبالة والورع والجهاد..

فأجاب مستمع آخر ينافس سابقه في الملق الرخيص: إن سعيداً يرفض البيعة لسيدنا الوليد، وأمير المؤمنين على قيد الحياة، ولو كانت البيعة بعد أمدٍ مديدٍ إن شاء الله لأجاب ثم أجاب..

فنظر عبد الملك إلى القوم وقال في أسف: علام نخدع أنفسنا في سعيد؟ إن الرجل يعتقد أن خلافة بني أمية ذات الإرث المتتابع لا تتجه وجهة الإسلام!! وهو على اعتقاده حريص، فقيم الجدل؟

وأحسَّ الرجلان بالخجل فانصرفا... وخرج القوم وراءهما متتابعين.



جبارٌ يتصاغر



كان الوليد بن عبد الملك مبتهجاً في مجلسه لسعادة أصابته في أمسه ويومه، فأخذ يتفكه مع جلسائه في مرح سافر، والبشر يكسو الوجوه فتئم عن ألقٍ وضيءٍ، ثم خطر ذكر الحجاج بن يوسف الثقفي فساد الصمت فجأة، وغمرت النفوس كآبة تعجّب لها الوليد، فسأل أصحابه متضحكاً: كيف تبدلت بكم الحال عند ذكر الحجاج!! فقال والي المدينة عمر بن عبد العزيز، وكان في الحاضرين - يا أمير المؤمنين، لا يخطر الحجاج في سرور إلا أفسده، ولو شاهدت وجوه الناس وما يصبغها من العبوس إذا تداولوا سيرته خارج قصرك، لوقفت على شرٍ أليم..

فابتسم الوليد ابتسامة معبرة وقال: أعلم أن سياستكما مختلفتان، وكم كتب إليّ الحجاج يشكوك.



فنظر عمر بن عبد العزيز متعجباً وقال: يا سبحان الله،
أويشكوني الحجاج إلى أمير المؤمنين، فأجاب الخليفة في
ابتسام: يقول أنك أفسدت عليه ملاءه في العراق، فما يشغب
شاغب بالكوفة أو البصرة، إلا رحل إليك هارباً منه فأويته
وحميته، وجعلت حرم رسول الله ملجأ للطرداء والمذنبين!!

فقال عمر معقّباً: أصدقك الحديث يا أمير المؤمنين، إذ
أعلن إليك أن إغضاب الحجاج قرينة عظيمة أتزلف بها إلى
السماء!! فضحك الوليد ضحكة عالية وقال في تفكه: أو بلغ
بك امتهانه إلى هذا القدر، إنّ والدي رحمه الله أوصاني به
خير وصية، وقال أنه جنة بني مروان!

فردّ عمر متعجباً: لا حول ولا قوة إلا بالله، أيكون هذا
الطاغية السفاح جنة بني مروان، وليس في يده غير العراق،
فهل كان جنتهم أيضاً في الشام والحجاز ومصر وأفريقية،
وخراسان!!

فنظر الوليد إلى جلسائه وسأل ماذا ترون؟ فصاح
صائحهم في مدهانة: القول ما قال أمير المؤمنين! فتنحنح
الوليد قليلاً ثم قال: إن أمير المؤمنين عبد الملك رحمه الله
حين أعياه أمر العراق، جمع أنصاره وخلصاءه، ثم خطبهم
بقوله: «أيها الناس إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها،



واملوح عذبها، وعظم خطبها، فهل من ممهد لها بسيفٍ
قاطع، وذهنٍ جامع، وقلبٍ ذكي، وأنفٍ حمي، فسكت
القوم، ولم يتقدم غير الحجاج، فجمع الله به الشمل ووحد
الكلمة، وأكد وفاده الجم لأمير المؤمنين...».

فقال عمر معترضاً: لو كان الحجاج ذا وفاء كما يظن أمير
المؤمنين لظهر ولاؤه لسيدته وولي نعمته روح بن زنباع، وزير
أمير المؤمنين عبد الملك رَحِمَهُ اللهُ.

فسأله الخليفة في دهشة: أوخان الحجاج روح بن زنباع
وقد قدّمه وزكّاه؟!

فأجابه عمر: لقد اختاره روح أميراً للعسكر، فأصبح
رجل الجند المطاع، وقائد الكتيبة المرهوب، وقد مرّ ليلة
بعسكر روح وهم يتناولون الطعام فأجبرهم على الرحيل
فامتنعوا حتى يأكلوا ما بأيديهم، فأحرق عليهم خيامهم
بالنار، وتركهم شُرّداً أباديداً!! وبلغ ذلك روحاً، فشكاه إلى
عبد الملك فما أنصفه وأقرّ صنع الحجاج.

فردّ الخليفة يقول: لولا أن الحجاج كان على حق، ما أيده
أمير المؤمنين رحمه الله فانقطع الحديث بعمر، ولم يدر كيف
يجيب!! ثم أخذ الوليد يتأمل وجوه الحاضرين وسأل مداعباً: ما
تقولون أنتم في الحجاج؟ احكموا بيني وبين عمر بن عبد العزيز.



فقال مستمع حصيف: إن رأي أمير المؤمنين أيده الله صائب سديد، فقد سكن الله بالحجاج ما تفاقم من فتن، وأمن به ما اضطرب من أمن، ولكنه لجوع مفيد، يسرف في الدماء لغير حاجة، وأحرى به أن يجانب الشطط، فلا يكون سفاحاً من الباطشين.

فقال الوليد: وهل يقتل الحجاج ضحاياه دون ذنب يقترفون، محال أن يكون ذلك من أمير أريب!

فرد المتكلم في لباقة: كل الذنوب يا أمير المؤمنين لا تستوجب القتل، وإراقة الدماء فمنها ما يقابل بالملامة، ومنها ما يكافأ بالسجن، ومنها ما يجازى بالضرب أو يلقي التهاون والإغضاء! ولكن الحجاج في أكثر أموره بطاش سفاح.

فقال الوليد في اهتمام: لك أن تضرب الشواهد والأمثال!

فأجاب الرجل في ثبات: لقد دخل عليه بعد معركة الجماجم رجل من بني جثعم، جاوز الثمانين، وكان قد اعتزل الحرب فلم ينضم إلى ابن الأشعث أو سواه، واعترف بذلك للحجاج! وقد رأى الطاغية في وهن جسمه، وارتعاش مفاصله، وتخاذل أعضائه من الكبر والشيخوخة ما يباعده عن أعمال الحروب والنضال... ولكنه أصرَّ على قتله دون



ذنب جناه! فأسرع عمر بن عبد العزيز يقول: أمّا وقد ذكرت
دير الجماجم، فلديّ من وقائعه ما يشيب الولدان!

فابتسم الوليد، وقال لعمر: انتظر قليلاً أنت يا بن العم،
فالرجل شاهدٌ يدلي بشهادته وأنت مدعّ تطالب بالقصاص!!
فابتسم القوم في مرج ثم استأنف الرجل يقول:

لقد تقدّم إليه غلام صغير لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره،
وبكى في لهفة وخوف، وجعل يقول: أنا غلام صغير، سرت
مع أمي وأبي ولا أعلم أين يقصدان، وظهر من ضعفه وسنه ما
ينطق ببراءته، ولكنه كان من ضحايا.. فسأل الوليد في تطلع
أوقتل الحجاج جميع أسراه يوم الجماجم ولم يعفُ عن أحد؟
فأجاب الرجل في حزم: قتل الكثير وعفا عن النزر اليسير،
وقد شاهدت بنفسي نادرة طريفة أقولها لو أذن مولاي!

فقال الوليد مبتسماً: هات نادرتك لعلها تروح عنا بعض
الشيء!

فردّ عمر متضحكاً: أوفي حديث الحجاج ترويح يا أمير
المؤمنين...

فقهقه المجلس في أدب يفرضه وجود أمير المؤمنين..
ونظر الوليد إلى الرجل وقال عجّل بالنادرة لتدهش
عمر بن عبد العزيز.



فقال الرجل وعينه لا تتحول عن الوليد: كان الحجاج قد اشترط على متهم أن يقرُّ على نفسه بالكفر، فإذا اعترف بذلك نظر في إطلاقه أو عقابه، وقد تقدم إليه رجل ماكر يود الحجاج أن يعجل بحتفه، فقال يقويه بالإنكار: إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر والمروق.

فابتسم المتهم في دهاء وقال: أَوْخَادِعي أنتَ عن نفسي أيها الأمير، أنا أَكْفَرُ أهل الأرض، وَأَكْفَرُ من فرعون ذي الأوتاد!

فضحك الحجاج حتى بدت نواجذه، واضطر إلى إطلاق الداهي المراوغ! فابتسم الوليد وتغدر القوم وأخذوا في شجون من الحديث!! على أن عمر بن عبد العزيز ظله صامتاً لا ينبس!! وقد أطرق برأسه إلى الأرض كمن يكابد أزمة داخلية تأخذ عليه شعاب تفكيره، فاتجه إليه الوليد في حذب بالغ وسأل: ماذا ترى أيها الصديق؟

فانتبه عمر لسؤال الخليفة، وأدركته البديهة المتيقظة فقال: أرى إن رأي أمير المؤمنين، أن يكتب إلى كلِّ وال من عماله ألا يبادر بقتل إنسان ما، ممن يشغبون عليه حتى يسأذن أمير المؤمنين بدمشق، ذاكراً ما يدعو إلى سفك الدماء، كان في ذلك عصمة للأرواح، وصيانة للمسلمين.



فائتلق وجه الوليد، ومدَّ يده إلى عمر مصافحاً في
بشاشة، وقال لجلسائه: رأيي سديد والله، وسأعجل بتنفيذه من
الآن وإني لمستفتح بالحجاج دون انتظار. ففرح الحاضرون
فرحاً أضاءت به الوجوه، ولمعت الأسرة، وأخذوا يمدحون
الوليد ويحبذون سيرته الهادية، وعاد المجلس إلى ما بدئ
به من المسرة والانتعاش حتى إذا قضوا حظاً مما يسمرون،
تفرقوا مستأذنين.



كان الحجاج جالساً في ملأ من أصحابه بالعراق، فأتاه
خطاب أمير المؤمنين يأمره أن يستأذن في كل دم يراق،
فسبغت وجهه مسحة كئيبة من الأسف والغیظ، وأخذ يفكر
في الأمر متأملاً ما عسى أن يكون قد أوحى به مما خالط
نفس الوليد، وجعل يقلب الرأي على شتى وجوهه محلاً
معللاً... ثم هداه دهاؤه إلى حيلة بارعة يقنع بها الوليد،
فتكون آية ناطقة على عدالج تصرفه وسلامة مأتاه.

لقد بعث إلى خارجي متشدد ممن يعده فيهم غلظة
القول، وفظاظة الطبع، وتهور النقاش، فقرّبه من مجلسه،
وأخذ يطرى - لمأرب في نفسه - صراحة الخارجى، ونظافة



اعتقاده، على غير ما يتوقع الرجل، ثم سأله في تخابث: ما تقول في معاوية؟! فقال الخارجي في صراحة جريئة: لثيم ماكر غدور، استحل الخلافة من غير طريقها، واستباح من المحارم ما أمر الله أن يصرن، فعليه لعنة الديان إلى يوم الدين، فلم يظهر الحجاج اكتراثاً لما سمع، وتابع سؤاله يقول: وما تقول في عبد الملك بن مروان؟

فقال الخارجي: شريك معاوية في الغدر والفجور، إن لم يكن زاد عليه بما جلب من الشرور وروع الآمنين، فعليه لعنة الديان إلى يوم الدين.. فتبأله الحجاج، وابتسم يقول في استخفاف: وما رأيك في الخليفة الوليد؟ فصاح الخارجي لثيم بن لثيم، وغادر بن غادر، وسفاح بن سفاح! فعليه لعنة الله إلى يوم الدين!

فأطرق الحجاج برهة كمن يدبر في نفسه أمراً ثم قال: إنك لصريح جريء وقد وثقت برجولتك العالية، واعتقادتك الغيور، أفرأيت إن أرسلتك إلى دمشق ثم قابلت الخليفة في قصره أتجابهه بهذا الحديث..

فشمخ الخارجي بأنفه وقال: ومن يكون الوليد؟ إنني لا أخشى غير الله رب العالمين، فابتسم الحجاج وقال في تودة: سترحل إليه عن قريب، ثم خلا إلى نفسه وأحضر ورقة يكتب فيها إلى أمير المؤمنين:



«أما بعد.. فقد وصلني خطابك تأمرني أن أستأذنك في كل دم يراق، وهذا خارجي لئيم ثائر، جَلَبَ الشرور، وأثار الموبقات، وله أنصار وأتباع، فإن رأيت أن تسأله عن اعقاده في معاوية، وعبد الملك وفي شخصك الكريم فسترى ما يوجب القتل السريع، ولقد كدتُ والله أن أُسقي الأرض بدمه لولا ما حرصت عليه من طاعتك ووجوب استئذانك في إهداره والسلام عليك ورحمة الله!!»

ثم سار الركب من العراق يضم الخارجي وحراسه ورسالة الحجاج إلى الخليفة، فما أن أتى قصر الخلافة حتى مثل بين يديّ الوليد، وقرأ الرسالة متعجلاً، ثم سأل الخارجي عن رأيه في الخلفاء الثلاثة فسمع ما سمع الحجاج، ورأى من تشامخ المسؤول وغطرسته ما استشاط به غضبه، فأمر جلاده فأزال رأسه عن جسده، ثم كتب إلى الحجاج يقول: «أنت في بؤرة فاسدة مفسدة فاحمل سيفك، ولا تراجعني في أحد والسلام» ثم قام مغضباً، فاتجه إلى زوجته أم البنين شقية عمر بن عبد العزيز، فحدثها بما كان من اقتراح أخيها وتصرف الحجاج، وأخذ يؤيد الطاغية في إرهابه وبطشه، وينحى بالملائمة على عمر بن عبد العزيز، ولم يدر أن أم البنين ستغضب لشقيقتها العادل الرحيم، فهجنت إرهاب الحجاج وسفّهته، وفاجأت زوجها بقوارع اللوم، وقوارع التأنيب -



وكان معها حليماً عطوفاً - فأرسل يستدعي أخاها من منزله على عجل، ليرأب الصدع، ويعيد الصفاء من جديد..

فسرعان ما حضر عمر، فآلم بما كان من أمر الخارجي ثم ما جدّ من خلاف الزوجين، ورأى من تشعب الخلاف، وتطاول الجدل، ما حمله على الملاينة والتلطف، فسأله الوليد في ضيق - وقد نظر إلى زوجته في غضبٍ كظيم - ما كنت تصنع يا عمر بالخارجي إذا استمعت إلى ما استمعت إليه من ردّه القبيح؟

فقال عمر في تصميم: لم أكن لأستبيح قتله يا أمير المؤمنين!

فردّ الوليد في تهكم نائر: أفكنت تميل إلى الصفح، فيتجرأ الناس وتعيد ماساة عثمان رضي الله عنه من جديد!!

فرد عمر في لباقة: كلا يا أمير المؤمنين، ولكني كنت أراجعه وأناقشه حتى يتوب، فإذا لم يرجع سجنه في محبسي ليفكر من جديد!!

فاحمر وجه الوليد، وصاح في غيظ: ذلك ما لا أطيق، ثم طرق الباب طارق...

فنهضت أم البنين إلى خلوتها الخاصة، وكانت تجلس دائماً إلى ستر قريب من مجلس الوليد فتسمع ما يدور



به، دون أن يعلم أحد عنها شيئاً غير أمير المؤمنين.. وإذا
 ذاك دخل سلميان بن عبد الملك شقيق أمير المؤمنين،
 وابن عم عمر بن عبد العزيز، فأدرك الخليفة أن أخاه ما
 قدم عليه في مثل هذه الساعة إلا لأمر شديد.. فصرف ما
 بنفسه من الغضب، وانبسطت أساريه، فحيا الوافد القريب
 تحية كريمة، ثم سأله في لطفٍ مهذب: ألك من مطلب
 يا سليمان؟ فتلعثم سليمان قليلاً ثم قال في اضطراب لا
 تستبين به الكلمات دون عسر شديد: إن الحجاج جزاه الله قد
 أرهق يزيد بن الملهب بما لا يستطيع، وإنني أستشفع إليك
 في يزيد، فقد نزل داري، ورآني أهلاً للشفاعة فيه، وإذا كان
 الحجاج يطالبه بكثير المال أو قلبه، فعليّ أن أدفع ما يريد..!
 فعبس وجه الخليفة فجأة وقال في ثورة: لقد كتب إلى
 الحجاج يكبر زلة يزيد، ويدعو إلى حتفه، وما أنا بمستطيع
 أن أفسد عليه خطته في الزجر والتأديب!

فردّ سليمان في أدبٍ يكسوه الحياء والهيبة، أنا لا
 أستشفع إليك في عدوّ يا أمير المؤمنين، فيزيد وأبوه وأخوه
 من نصرائنا المخلصين، وقد جاهدوا في صيانة ملك بني
 مروان بما لم يقدّم به الحجاج، وإنني لأستحلفك بالله إلا
 نظرت إلى يزيد من جديد!!



فردّ الوليد متجهماً.. دعنا منه!! قد نفذ أمر الحجاج دون نقاش!! وهمّ بالوقوف في غضبٍ ظاهرٍ. فخجل سليمان خجلاً جعل عرقه يتصبب فيغسل وجهه، ويبل ثيابه، ثم انسحب متألماً ملتاعاً فتبعه عمر بن عبد العزيز.

وساد القصر وجوم كئيب، فأم البنين قد سمعت ما دار من الحديث، فقابلت زوجها غاضبةً صاخبةً، ثم انفجر بركانها فجأة فصاحت في تهكم: يا لحظّ الحجاج من رجل سعيد!! لقد غضبت في سبيله أخاك وزوجتك وابن عمك فمن ستستبقيه؟

فقال الوليد في غيظٍ: أيّنا غضب الآخر؟ أنتم تتدخلون في أمور السلطان فإذا عالجتُ الشيء بالحزم تكالبتم عليّ، وكأنكم أعداء ألداء تشيرون من حولي الفتن الصاخبة فلا أستريح!!

فأجابت أم البنين في تهكم ساخر: كلّنا عدوك يا أمير المؤمنين، أما الحجاج وحده فحبيبك الفريد!! ثم انخرطت في بكاءٍ مرير!!

ضاق الخليفة بأمره، وودّ لو استطاع أن يبدّد عبوس القصر واكتئابه، فجعل يفكر فيما يزيل الغضب والنفور، وما كاد يستريح قليلاً من خواطره المتشابكة، حتى سمع طارقاً



يدق الباب من جديد!! فخرج إلى لقائه بنفسه مؤملاً أن يجد موضوعاً آخر ينسيه ويلهيه! ولكنه شاهد منظرًا عجباً! فقد رأى يزيد بن المهلب مكبلاً بالأغلال ومعه في قيده أيوب بن شقيقه سليمان، وفي أيديهما رسالة صغيرة، خطها سليمان بقلمه، وفيها يقول:

«أما بعد فإنني وجهت إليك يا أمير المؤمنين بيزيد بن المهلب وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممتُ أن أكون ثالثهما، فإن هممتُ بقتل يزيد فبالله عليك أن تهدأ بأيوب ابني من قبله ثم اجعل يزيد ثانياً، واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام» فاستخذي الوليد واستحيا لما قرأ وشاهد.. ثم قال: لقد أسأنا إلى سليمان إذ بلغنا به هذا المبلغ، وبأدرك فأحضر حداداً فأزال القيد وعفا عن يزيد بن المهلب بعد أن منحه عشرين ألفاً من الدراهم وقال له: إذهب كما تريد فلا سلطان للحجاج عليك مهما ألحف وأعاد».

ثم عاد إلى زوجته يستدني صفاءها، فلانت بعد جماع، وهدأت بعد إباء عنيده، ورأى الخليفة أن يُداعبها ببعض الحديث، فقال في ملاطفة: إنك لتستهزئين بالحجاج، ولو - والله - رأيتيه لاضطرب فؤادك بين أضلاعك، وتلعثم على شفئك قولك النصيح!! فهزّت أم البين رأسها ساخرة وقالت



في تحدّ صبغ ملامحها صبغة رائعة باهرة: عليّ به إن شئت،
وسأريك مقامه بين يدي لتعلم من تكون ابنة عبد العزيز!!

فضحك الوليد حتى استلقى على جنبه وقال في إصرار:
لك ما تشائين، فالحجاج في طريقه إلينا منذ أيام. وسأذن له
في لقاءك لأرى موقفك من الرجل في عنفه الشديد فصاحت
متهللة: وَعُدُّ الحرُّ يا أمير المؤمنين! وتفرّق بهما القول إلى
سمير حبيب.

تصرمت أيام، وحانت الساعة المرتقبة، فمثل الحجاج
بين يديّ الوليد، وتطارحا الرأي في شجون من الحوادث،
وأنانين من الوقائع، فقال أمير المؤمنين، وأمّ البنين تسمع
من وراء ستار إن زوجتي تريد لقاءك يا حجاج فمتى؟ فردّ
الحجاج في عجلة: دعك من رغبات النساء ومفاكتهنّ يا
أمير المؤمنين، فإنما المرأة ريحانة وليس قرمانة، فلا تطلّعها
على سرّك ومكايدة عدوك وأغلق دونها رأيك، فتستريح...

فضحك الوليد في خفة، وقال: لا بدّ من مقابلتها الآن، وها
هي ذي خلف الستار، ثم رُفِعَ الحجاب بغتة، فظهرت أم البنين!
اضطرب الحجاج لما بدر منه، وفاجأته السيدة المغضبة
تقول: قِفْ يا حجاج ولا تجلس، فلست من آل مروان
لتجلس جوار أمير المؤمنين.



فنهض الطاغية واقفاً كما أمر.

فهزّت السيدة رأسها، وقالت في سخرية: إيه يا حجاج
أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتال ابن الزبير وابن
الأشعث، أما والله لولا أن علم الله أنك شر خلقه ما
ابتلاك برمي الكعبة الحرام، ولا بمصرع أول مولود في
الإسلام!

فسكت الحجاج، ولم يُجب، فنظرت إليه، وواصلت
حديثها تقول في اشمئزاز: إيه يا حجاج، أتنهي أمير المؤمنين
عن مفاكهة النساء، وبلوغ أوطاره معنا، فإن كنّ يلدن مثلك، فما
أحقه بالقبول منك، وإن كنّ يلدن مثله فهو غير قابل لما تقول!!
فسكت الحجاج، ولم يُجب، فهزّت رأسها متشامخة ثم
قالت في استخفاف:

لماذا هربت يا حجاج من «غزالة» وهي إحدى النساء!
أفكانت ريحانة وليست قهرمانة، أم أنها في أنوثتها القوية
كأسد هصور يزأر أمام رعديد خوور؟

ثم صفقت، فحضرت جاريتها، فقالت أخرجيه أخرجيه!!
فسحبت الطاغية كالدابة الذلول!!

قال الوليد وقد قابل الحجاج عقب ذلك: ما رأيك في أم

البنين.



فردّ الحجاج في احتراس: والله يا أمير المؤمنين ما
سكتتُ عني حتى وجدت نفسي قد ذهبت وما ظننت أننى
تبلغ مبلغها بين النساء.

فصاح الوليد مبتسماً: ألا تترك كياستك معي يا حجاج
مرةً واحدةً، أنا أدرى برأيك الخاص في أم البنين!!





بطلٌ مضطهدٌ

جلس سليمان بن عبد الملك بعد أيامٍ من توليته الخلافة،
جائش الصدر ملتهب الغيظ يفكر في هؤلاء الذين أخلصوا
الودّ لسلفه الوليد، فكانوا دعامة لعرشه، وسنداً لسلطانه، وأنه
ليعضّ الكفّ غيظاً أن مات الحجاج قبل أن يتمكن من دمه،
فكم كان يتمنى أن يبطئ به الأجل، حتى يتسلم الخلافة،
فيستقدمه من العراق مصفداً مغلولاً، ثم يذيقه أمرّ وخزات
السباب، وأشدّ داميات القوارص، حتى إذا انقطع به القول
وأدركه البهر، أمر به فأريق دمه بين يديه، ثم بعث برأسه
إلى العرق، فصُلت بمرأى عن مناوئيه، ومشهدٍ من أعوانه
ومريديه، ولكن من ذا يتحكم في القدر، وقد أراد أن يفلت
الحجاج من يديّ سليمان فينقذه الموت من فضيحة مُخجلة،
وخزيٍ عظيم... على أن الخليفة قد جال بفكره فيمن
اصطنعهم الحجاج، واصطفاهم من القادة فذكر البطل الفاتح



قتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح بلاد ما وراء النهر، وذكر الشاب
الباسل محمد بن قاسم الثقفي بطل الهند، وفاتح بلاد السند،
فابتسم ابتسامة شامقة وقال في تشف حاقده: لا بد أن يكون
في مصرع هذين البطلين بديلاً عما فات من دم الحجاج!!
فلقد كانا من خيرة رجاله، وأعزّ أعوانه، بل إن أحدهما قد
ساعد الوليد على إحباط بيعتي وتشريد الأمر من يدي، وهم
الآخر بذلك لولا أن سبقت كلمة القضاء!! ولا بد أن يسيل
دمهما مراقاً مهدوراً، فيعلم الناس أن سليمان بن عبد الملك
لا يمتنع على بأسه الصارم، بطل فاتح أو مغامر صنيدي!!

وهذأت نفسه قليلاً حين صمم على الغدر بهذين
البطلين، وابتسم ابتسامة المقتدر المعز المذل.. غير أن
هاجساً خفياً نبض في خاطره يذكره بما كسب هذان الباسلان
للدولة العربية من أمجاد!! وما أهديا إلى الإسلام من فتوح،
وكاد يستمع إلى هذا الهتاف الطاهر، لولا أن عقارب الحسد
لدغته في مجلسه لدغاً ثائراً، فتراجع يقول: وما كسبتُ أنا
من فتوح هذين الباسلين؟ لقد كتبا يجاهدهما الرائع مجدداً
خالداً تذكره الأيام في سجل الوليد، وتحفظه الأفلام في
صحيفة غير صحيفة سليمان! حتى ليقول التاريخ أن عهد
الوليد بن عبد الملك، كان عهد انتصار وفتوح وإقبال... ثم
ينتقل إلى عهدي فلا يجد ما يقول... ليتهما كانا خاملين



رَعْدِيدَيْن، فلا يفخر ببطولتهما عهد الوليد، ولئن كانا على
غير ما أود فلا بد أن أذيقهما النكال، غير عابئ بما يتحدث
به الناس!!

وطرق الباب حاجبه يستأذن عليه في دخول صديقه
يزيد بن المهلب، ومعه بطل أفريقيا وفاتح الأندلس
موسى بن نصير!!

فتجهم سليمان في مجلسهن تجهماً عابساً، ثم صاح في
غضب: أدخل يزيد وحده، واستبق موسى لديك حتى أنظر
في أمره واستدعيه!!

ودخل يزيد بن المهلب باسمأ ضاحكاً، فحيا سليمان
تحية الخلفاء، وأخذ مكانه إلى جواره، واندفع يقول في
تملق واستعطاف:

لقد عاد للخلافة رونقها الخالب، وبهاؤها الساحر
منذ ائتلق في آفاقها ضياء أمير المؤمنين!! ولقد كانت
أيام الوليد - عفا الله عنه - محاقاً قائماً كسفت به نجوم،
واحتفت في دياجيره كواكب!! ولكن الليل لا يدوم، فقد
أذن الله لشمس العدالة أن تسطع وضيئة باهرة منذ سطوع
أمير المؤمنين حرسه الله، فهنيئاً للعرب والمسلمين بعهدك
السعيد!!



فترنح الخليفة في مجلسه، وهز الأطراء الكاذب من
أعطافه، فقال في ابتسام مغرور: ولقد كاد كوكبك يا يزيد
يختفي في طلام الوليد، لولا أن تداركتك بالإنقاذ مجازفاً
بحياة ولدي أيوب!!

فانحنى يزيد انحناءة الشكر والاعتراف بالجميل، وقال
في دهاء: لعن الله الحجاج فقد سّود صحيفتي لدى الوليد،
ولولا عناية إلهية دفعتك يا مولاي إلى إنقاذي لصرت رمة
بالية تصفر عليها الريح!!

فعضّ سليمان على شفّتيه كالمغتاظ، وقال في أسف:
ليتني أدركت الحجاج فأريق دمه بين يديك، ولئن ذهب
بجرمه إلى عذاب الله وجهنمه، فلن يذهب أصفياؤه وعشراؤه
من قبضتي الباطشة، فإن لهم يوماً عبوساً تمطر سماؤه دميّاً
قانياً، وتنفجر أرضه باللهيب!!

ثم قال يزيد في تملق: هذا بعض ما يستحقون في الدنيا،
ولهم في الآخرة لدى الجبار المنتقم سوء المصير!

فردّ الخليفة يقول في تشف حقود: سأنتقم قريباً من كل
غاشم أيّد سلطان الوليد، وأعانه على الثبات والاستقرار،
ومن هؤلاء موسى بن نصير، وإن اصطحبته معك لتشفع فيه!
سأنتقم من موسى! ومن قتيبة! ومن محمد بن القاسم. ومن
كل بطل كسب المجد لتاريخ الوليد!



فاكتب يزيد اكتئاباً ظهرت دلائله العابسة في وجهه،
وقال في أدب رقيق: الأمر أمر مولاي أمير المؤمنين، يعزُّ من
يشاء ويذلُّ من يشاء! غير أنني أعلم أن موسى بن نصير لم
يكن من أعوان الحجاج! فقد كان ييسط نفوذه غرباً، وكان
طاغية ثقيف في المشرق يطيح بالرقاب!!

فنظر سليمان نظرة مأكرة إلى يزيد، وقال في غضب:
أين ذهب عقلك يا هذا؟ ألم يثبت موسى بن نصير دعائم
الخلافة للوليد في أفريقية، ثم ألم يفتح بلاد الأندلس فيغنم
آلاف الآلاف من الدرر والكنوز، ويرجع إلى الوليد فيعطيه
جميع ما أحرز، ويكتب بذلك صحيفة لامعة من صفحات
الجالس على عرش الخلافة بدمشق! هذا قليل يا يزيد؟!

فردَّ يزيد في تخابث: لقد أساء موسى بلا شك إساءة
غير مقصودة، ولو كان يعلم ما بينك وبين أخيك من شقاق
لترى قليلاً في الفتح والانتصار، ومن أين له أن يعلم، وهو
نازح بعيد، وأسرار القصر مغيبات محجبات!

فصاح سليمان في غضب: أتخدعني يا يزيد؟! لقد همَّ
الوليد بخلعي من ولاية العهد وتحديث في ذلك مع ولائه
وعماله، وبادر الحجاج بالامتنال فأعلن الموافقة وأخذ
يحقرني في العراقين، ويختلق عني شتى الأراجيف، ومثل



هذه الأنباء لا بد أن تصل إلى أمير فاتح كموسى بن نصير،
يحتل إمارة ممتدة الأطراف ويتنقل في فتوحه من مضمار
إلى مضمار!!

فنظر يزيد نظرة المتوسل، وسأل في أدب ولطف: أيمن
أن نسأل موسى عن مبلغ علمه، لنقف على ما لديه من أنباء
فلعله في مغتربه النازح بريء بريء!!

فوقف سليمان في مجلسه غاضباً، وصاح: لقد راسلته
شخصياً في أواخر عهد الوليد، وطلبت منه أن يرجئ حضوره
بالغنائم والسبايا، أياماً معدودات، حتى يفارق الوليد هذا
العالم، فيأتي إلي، فأرث أنا الكنوز والأموال، وأضيف مجد
الفتوح إلى عهدي السعيد، ولكنه أسرع وبادر ليهج الوليد!

فابتسم الوليد ابتسامة مكرة، وقال في استفهام: من
يدري لعل الرسالة لم تصل إلى موسى، وهو عن كذب منا،
أفتأذن له يا أمير المؤمنين!

فقال سليمان في غلظة: سأذن له، لترى عقوقه وجحوده،
فتقضي عليه بشر المآب يا يزيد، ثم صفق بيده يطلب من
الحاجب إدخال موسى مهاناً غير مكرم! فحضر القائد أسيفاً
ضارعاً، تعلوه كآبة عابسة، ثم انحنى في استكانة مستسلمة
يحيي أمير المؤمنين!



فقال سليمان في غطرسة متعالية، وشموخ متكبرٍ مقيتٍ:
ألم تصلك رسالتي أيها الآثم الظالم؟ فكيف خالفتها وبادرت
بالحضور؟!!

فردَّ موسى في تؤدة هادئة: شهد الله لقد وصلت إليَّ
رسالة أمير المؤمنين حرسه الله في منتصف الطريق، ومعني
من السبايا والغنائم والأسلاب ما لا يدخل في نطاق، فإذا
كررت راجعاً إلى الأندلس تمرّد الجنود، ونهب كل قائد ما
تحت يده، ثم ساح في مضطرب الأرض بذخائره فلا أقدر
على احتجازه، وإذا وقفت حيث أنا بين أفريقيا ومصر وبين
قبائل البربر وحشود الروم، فسيختلط الجند والسبي بالناس،
وربما استوطنوا هناك مكاناً لا أقدر على انتزاعهم منه، ويتعذر
عليّ أن أصرفهم عنه... وإذ ذاك لم أجد بداً من المسير!

فقال سليمان في غيظ: لم تجد بداً من المسير لتسعد
الوليد بما يدخل عليه المسرة والانتعاش، ولتشقيني بالغيظ
والإنقباض دون اكتراث لواجب أو تفكير في مصير...

فأطرق موسى لحظة ثم رفع رأسه في هدوء: رفقك يا
أمير المؤمنين فإن ما فتح من بلاد الأندلس أقل بكثير مما لم
يفتح بعد، ولئن أسعدني الله بعفو الخليفة ورضاه، لأنهضنَّ
على رأس الجيش بالأندلس، ولأفتحن كل مكان لم تطأه



أقدام العرب من قبل، فقد كان في نيتي علم الله أن استخث
الغزو متواصلاً ذؤوباً فأحترق المدن الإفرنجية، حتى أعود
إلى المشرق عن طريق القسطنطينية، وإذ ذاك أرجع إلى أمير
المؤمنين سليمان بأضعاف ما رجعت به إلى الوليد، وأضيف
إلى عهده الزاهر من الفتوح ما لا يقاب به عهد أخيه!! فتنمر
سليمان في مجلسه، وقال في استهزاء: ويحه! يستميلني
بمعسول الأحلام، ولست ممن ينخدعون، ولا بدّ من الانتقام
العنيف!

فأطرق موسى ولم يجب! وصاح سليمان بيزيد! لقد
اعترف صاحبك بوصول رسالتي إليه، ومعصيته لرأيي فماذا
تقول؟

فقال يزيد في أدب: تلك جريرة فادحة دون نزاع، ولكنها
لم تكن عن قصد خبيث، ولئن أطال الله في الأجل ليخدم
أمير المؤمنين بأضعاف ما خدم به الوليد!

فقال سليمان: إن موسى خادم لئيم: أفيخدمني وقد عصى
سيده وولي نعمته معاوية بن أبي سفيان؟

فرفع موسى رأسه في أدب وقال: متى كان ذلك يا أمير
المؤمنين؟! لقد كنت عبد معاوية المطيع، وكان رحمه الله
يقدر طاعتي وولائي فغمرني بخيره الجزيل!



فأجاب سليمان في جفاءٍ غليظٍ: لقد تناقل الناس عنك أنه دعاك إلى حرب علي بن أبي طالب في موقعة صفين، فلم تشأ أن تطيع؟

فأجاب موسى في صراحة مهذبة لا ينقصها الثبات: ذلك حق يا أمير المؤمنين فقد قلت لمعاوية رحمه الله أن المحارب لا يؤدي واجبه في الميدان دون إخلاص واقتناع!! وإن ضميري الحربي لا يأذن لي أن أخوض حرباً طحوناً بين طائفتين من المسلمين ولو كانت شهد الله من حروب الجهاد لبذلت الروح في سقاء.

فقهقه سليمان كالساخر، وقال: كأنك تعتقد أن أتباع علي كانوا من المسلمين!

فأطرق موسى إلى الأرض ولم يجب!! وتدارك يزيد الموقف فقال لقد قبل معاوية رحمه الله استعفائه عن صدر سمح، وعفو حليم! وأرى أن يعفو عنه أمير المؤمنين اليوم إحياء لذكرى معاوية العظيم!

فنظر سليمان نظرة ساخرة ثم قال: فيم استخفافك بوالدي عبد الملك ابن مروان أيها الصعلوك الحقيّر!

فنظر موسى كالمأخوذ وقال في عجب: حاشا لله أن أستخف بسيدي عبد الملك رحمه الله، ولو علم بذلك لأذاقني شر النكال!!



فردّ سليمان في سخرية: لقد جاءتنني الأنباء أنك خرجت
بالناس حين كنت والياً على أفريقيا مصلياً صلاة الاستسقاء،
فأخذت تدعو الله دعوات ضارعة ليرسل الغيث على
المسلمين، فقليل لك: ادع لعبد الملك أمير المؤمنين، فقلت
في وقاحة: هذا موقف لا يذكر فيه غير الرحمن! أصحيح
ذلك؟

فقال موسى في رفقٍ مهذبٍ: نعم يا أمير المؤمنين،
فالموقف موقف السماء لا موقف الأرض، ولولا الإخلاص
لله وحده ما هطل السحاب!

فتضحك سليمان وقال ليزيد في استهتار: يتظاهر اللئيم
أمامي بالخشية والصلاح كأنني لا أدريه!

فقال يزيد بن المهلب مبتسماً: لعله صادق يا أمير
المؤمنين، ولا عليك في ذلك، فمن خاف الله أمنه
الناس!

فانتهر الخليفة رد صاحبه وقال في عجلة: كيف يأمنه
الناس وقد فعل بطارق ابن زياد الأفاعيل؟

فردّ موسى في أدبٍ عفيفٍ: أتأذن لي يا أمير المؤمنين،
فتجهم وجه الخليفة وصاح يقول: لا أريد أن أسمع حديثك،
فاسكت على غيظك الحبيس!



فتدخل ابن المهلب ملاطفاً، وقال في توسل: لو تفضل
أمير المؤمنين حفظه الله فأذن بمناقشة موسى في مسألة
طارق، لعرفنا المخطئ والمصيب!

فصاح سليمان في غيظٍ غليظ: الأمر واضح يا يزيد،
لقد حسد موسى طارقاً على شجاعته وبسالته، وعزّ عليه أن
يستطيع هذا البربري الباسل، فتح بلاد الأندلس بعد قليل،
فافتري عليه، المآثم، وقابل بطولته الباسلة بدناءة سافلة،
وغدر وبيل!!

فنظر موسى كمن يستأذن في القول على حياء: فأدرك
يزيد ما بنفسه فقال لأمير المؤمنين بأبيك رحمه الله ألا أذنت
يا مولاي!

فأظهر الخليفة تأفّفه الكريه، وجعل ينفخ في مجلسه
كمن يتضجر بصاحبه ثم لانت عريكته بعد لأي، فأشار بيده
إشارة من يأذن للمتهم في الحديث، فاندفع موسى بن نصير
يقول في هدوء وقور: كان طارق بن زياد ساعدي الأيمن في
أفريقية، فقد اكتشفت بطولته النادرة وثباته الرائع، فرميت
به الخطوب في معارك حامية، ومآزق دامية، واستطاع أن
يغنم النصر سريعاً في إعجاب وتقدير، وكانت قبائل البربر
المترامية ترهب فزعاً لسطوته وشدة مراسه، فما يثور بطن من



البطون المتناحرة الحاقدة، حتى يهب طارقاً كالعاصفة فيجعل الثورة طاعة، والتمرد إذعاناً واستسلاماً، ولم يداخلني شيء من الحقد عليه في بسالته وهيبته، وهو بين قومه ومعشره من البربر، ولو كان الأمر كما قيل كذباً لأمير المؤمنين لخفت على نفسي منه، ولكني كنت - علم الله - أعجب بفروسيته، وأشيد ببسالته على رؤوس الأشهاد!! فتولى قيادة جيوشي في فتح بقية بلاد المغرب، واستطاع السيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي!! ثم قاتل وجالد حتى بلغ (طنجة) قصبة البلاد وأم المدائن فحاصرها وافتتحها، وأسلم أهلها على يده، وصار أميرها المطاع، أفلو كنت حاسداً حاقداً كما قيل لأمير المؤمنين، أفأستطيع الصبر عليه وهو أسد خادر في عرينه بين أشباله وآجامه وغياضه!! بربك، ألا نظرت للأمر بعين الإنصاف يا أمير المؤمنين!!

فقال سليمان في ضيق متبرم: ولكن الشهود قد اعترفوا جميعاً بأنك حين التقيت به في مدينة (استرقة) لأول مرة، وقد ترجل عن جواده، ونهض قائماً بين يديك، يحييك تحية الجندي للقائد الأمر... جابته بالملامة المؤذية والنقيصة المخزية أمام عسكره، وبالغت في تهجينه، ثم ضربته بالسوط، وغلّته بالقيد مع أن الأندلس فتحت على يديه لا على يدك!!



فأجاب المتهم في قوة ثابتة لا يشوبها تردد والتواء: شهد
الله لم أضرب طارقاً بسوطٍ، أو أغل يده في قيد!! ولكني
سقت إليه بعض الملام لأمر خالفني فيه، إذ كنت أوصيته
أن يقف حيث أمر حتى تأتية الإمداد!! ولكنه خالف الأمر،
فاستوجب مني بعض الملام!!

فصاح سليمان في لهجة رابعة: لا أم لك يا موسى! أمثلك
يموه عليّ الأحاديث، لقد سارعت إليه، فوجدته توسع في
الفتح على أحسن ما يرجوه قائد مقدم!! فجنى لك خير الثمار
من أيسر طريق، دون أن يحصل ما تتوقعه، كاذباً من وثوب
مكيدة أو نشوب ثورة!! وقابلته، وقد تمّ كل نجاح على يده
فلِمَ الملامة والتشهير أيها الرئيس الحقود الخداع؟! فواصل
موسى حديث في هدوءٍ - وكأنه لم يسمع سباب أمير المؤمنين
- فقال في جرأة ثابتة: إن أوامر القيادة في ساحة الميدان لا
بد أن تطاع يا مولاي، فإذا تجرأ جندي على مخالفتها لسبب
ما يرتئيه، فقد استوجب الملام! وهبه خالف ووفق، فلا يبعد
أن يؤمر مرة أخرى، فيخالف ويستعصى عليه النجاح، فتكون
الهزيمة الشنعاء!!

فصاح سليمان متبرماً: صه يا لجوج، لقد كشفنا
طواياك!!



فقال يزيد بن المهلب في رفق مستعطف: لقد أخطأ موسى يا أمير المؤمنين؛ ولكنه المسؤول المدّر لعواقب الأمور! أفلا تشمله بالمغفرة والرضوان!!

فتهجم سليمان في غلظة وقال: أشمله بالصفح والغفران، وقد سرق الغنائم، وسلب الأموال!!

فقال موسى في ضراعة: أين هذه الأموال التي قيل لك عنها يا أمير المؤمنين ولو كنت سرقت شيئاً أو اغتصبته لأتيت به معي ثم أعطيته إلى خاصتي من الأقارب والأشياء! إن منزلي أمامك، وأقاربي تحت قبضتك!! ولك أن تبحث في كل فج عما يمكن أن أتستر عليه!! ولن يغلب أحد سلطان أمير المؤمنين.

فصاح سليمان محتداً... ورأس والذي عبد الملك إنك لسارق مغتصب حقود، ولقد كنت علي أن أفصل رقبتك جسديك لولا شفاعته يزيد!! وهأنذا أهب لك حياتك من أجله وحده! على أن تدفع سريعاً ما اغتصبت من مال المسلمين!!

فقال موسى في يأسٍ لم أغتصب درهماً واحداً يا مولاي! كذبٌ ما قيل، كذبٌ ما قيل، فعبس سليمان في وجهه عبسة منكرة، والتفت يصيح بيزيد: أمامك صاحبك، قد حفظت دمه من أجلك وحدك على أن أتسلم منكما ستمائة وتسعين



ألفاً ذهباً في حوزته! ولئن لم يحضر ما قدرته عليه ليكونن من الهالكين... فردّ يزيد في امتنان: الشكر والنعمة لأمر المؤمنين.

ثم خرج الرجلان يطوفان بالقبائل. ويلمان بشعاب الأحباء، يجمعان من كل أريحي كريم ما تجود به نفسه من العطاء! وفيهم من يتبرع لسخائه بألف دينار، ومن يقذف على مضض أليم بدرهم واحد!! وقد دفعت قبيلة لحم وحدها تسعين ألفاً، ودفع آل المهلب قرابة ذلك!!

ولبت القائد المظفر يتسول ويستدي الأيدي من الرؤساء والأذنان حتى حصل على أكثر من النصف المطلوب، وأقبل مع صاحبه يزيد يتشفعان في الباقي في ملقٍ واستعطافٍ! فعفا الخليفة بعد تشددٍ غليظٍ، وأرسل لعناته الغاضبة على القائد المظلوم! فسمعها في صمتٍ شاحبٍ كئيبٍ، ثم تسلل حزيناً باكياً إلى حيث لم يسمع عنه بعد ذلك تاريخ!! وخيم محاق بهيم!!



خليفة زاهد



تأوه سليمان بن عبد الملك في مرقدہ لثقل في أمعائه
ظلّ يلح عليه حتى شَرَدَ هدوءه، فبعث إلى محترفي الطب
في دمشق فلم يجد لديهم ما يذهب سقامه! واستعصى الداء
واستفحل حتى بدا الموت لعينه فدعا على عجل مستشاره
رجاء ابن حيوة الكندي، وأخذ يثثه ما يكابد من سقام! فقال
رجاء أشرت عليك يا أمير المؤمنين ألا تفرط في الطعام
والشراب، فقد رأيتك منكباً عليهما انكباً لا يدع لمعدتك
راحة من تعب أو أمناً من اضطراب، ولئن شفى الله أمير
المومنين لأطردن من بقصره من الطهارة!! ولأجعلنّ غذاءه
سهلاً ميسوراً يُصَحّ ولا يمل، ويفيد ولا يوبق..

فنظر سليمان إليه نظرة حزينة وقال في ألم: ما أظن
شقائي ميسوراً بعدم اليوم، فقد رجع الأطباء مني دون
طائل، وإنني لأحسّ من سطوة الداء بما لم أحسّ به من قبل،



فأمعائي تكاد تتشقى قطعاً قطعاً، ونفسي المبهور اللاهث
يكاد ينقطع، وعريقي كما ترى يتصبب كالغيث دون انقطاع
فأطرق رجاء في إشفاق وهو يقول: لا يأس من روح الله!!
ثم رفع رأسه فوجد عيني سليمان تدمعان!! فابتسم ابتسامة
مشجعة! وقال في ملاطفة: أويكي أمير المؤمنين؟

فردّ سليمان في ضيق، وما لي لا أبكي يا رجاء!! وقد
مات ولدي أيوب وكنت أتمنى أن يكون وليّ عهدي وصاحب
أمر الناس من بعدي، وإنني أستعرض أولادي الصغار فأجدهم
أطفالاً لا يرضى بهم أحد مهما أقمت الوصيّ الأمين!!

فقال رجاء في حزم: إن مشيئة الله يا أمير المؤمنين فوق
كل شيء، وللخلافة أعباؤها الثقيلة فلعلّ الله قد رحم أفلاذ
أكبادك أن يصطلوا بنيرانها ولئن مرّ عهدك وادعاً ساكناً،
فليس هكذا الأيام، ولعلك رعاك الله وشفاك تذكر ما قابله
أبوك رحمه الله من صعاب، فزفر سليمان زفرة حارة! وقال
لقد رفّعت عني بحديثك يا رجاء وما أرى يومي إلا قد
حان وأحب أن أستخلف من أبناء مروان من ينهض بشؤون
المسلمين فمن تراه؟

فسكت رجاء كالمفكر ثم قال: أبقاك الله يا أمير المؤمنين
وعافاك.. إن اليسر بعد العسر والضيق بعد الفرج، وما أظنّ



مرضك غير سحابة صيف تنقشع عن قريب! فدعك من
حديث الوصية الآن، فتأوه سليمان كالملدوغ وقال: أنت يا
رجاء لا تحسن بضناي الكارب وألمي الثقيل! ناشدتك الله أن
تختار معي الخليفة الأمين!!

فنظر إليه رجاء نظرة حائرة ثم قال في جد حازم: إذا
صممت يا أمير المؤمنين على الوصية فاعلم أنك ستحاسب
في قبرك عمّن استخلفت على المسلمين فإن كان صادق
العقيدة حسن السيرة كانت أعماله في ميزانك وتقرّبت
به شافعاً إلى الله وإن كان على غير ذلك رانت ذنوبه على
كاهلك ولقيت الله بحساب رجلين لا رجل! فالله الله يا أمير
المؤمنين.

فتطلّع سليمان إلى رجاء وقد وضع يده على أحشائه كأنه
يحاول أن يسكن زلزلة تثور! وقال: بارك الله فيك من ناصح
أمين يا رجاء! هكذا العلماء الأتقياء ورثة النبيين! فمن ترشّح
من أبناء عبد الملك بن مروان!!

فقال رجاء سريعاً كأنما يحاول أن ينتهز رضا سليمان
وخشوعه: ولم تُضَيّق الدائرة يا أمير المؤمنين فلا تتعدى أبناء
عبد الملك! وأنا أعرف أن هشاماً ويزيد أخويك لا يبلغان من
القبول مبلغ سواهما من بني مروان!!



فقال سليمان: لا، لا، عافاك الله، أخرج الملك من بني أبي!! وإلى مَنْ يتجه يا رجاء؟

فقال رجاء في تصميم: إن أردت وجه الله فإلى عمر بن عبد العزيز بن مروان ثم إن أردت الأمر بعد ذلك لبني عبد الملك فبايع ليزيد أخيك من بعده!!

فعضّ سليمان على شفتيه كالحائر لحظة ثم عاد إليه هدوءه فقال: لقد نسيْتُ عمر بن عبد العزيز فجزاك الله خيراً إذ ذكرتني به الآن.

فابتسم كالمرتاح، وقال: برّبك يا أمير المؤمنين أترى في بني مروان أعدلَ منه سيرة وأنقى سريرة، وأصلبَ إيماناً وأصدق يقيناً في النائبات!!

فقال سليمان مؤمناً على قوله: لا والله! ثم إن له عليّ ديناً ثقيلاً حان أن أوفيه دون إمهال!!

فقال رجاء في أدب لولا إشفافي الحريص على صحتك يا أمير المؤمنين لسألتك أن توضح لي كيف اقترضت منه هذا الدين الثقيل.

فاعتدل سليمان من نومته وقد انطبعت على محيّا الشاحب ملامح ساهمة وقال في همسٍ وخفوتٍ: تعلمُ يا رجاء أن أخي الوليد - عفا الله عنه - أراد خلعي من ولاية



العهد، وكاتب عمّاله في الأمصار فأيدوه وظاهروه!! ولكن
عمر بن عبد العزيز وكان والياً على المدينة جاهره بالعصيان!
وقال لا أنقض بيعتي الصادقة لسليمان فأغضب الرحمن!!

فقال رجاء في ابتسام: ليس هذا بمستغرب من عمر فهو
لا يخشى في الحق لومة لائم من الخلفاء!! فتابع الخليفة
يقول: وقد تعرّض لاضطهادٍ بالغ من أجل موقعه، فعزل عن
المدينة، وسُجن في مكان خاص ليرجع في بيعته، وأغلظ له
الوليد في الوعيد! ومع ما لقي من العنت الكريه فقد وقف
ثابتاً لا يتزحزح! وكأنه الطود المسكين، ويميناً لولا ثبات
عمر وصلابته لطارت عني خلافة الله في الناس!!

فانبرى رجاء يقول: وقد كان في ولايته على المدينة
مثال العدل والرحمة، وكثيراً ما لجأ إليه الهاربون من بطش
الحجاج فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وقد اصطفى
لأول عهده بالولاية عشرة من العلماء الورعين فجعلهم
مستشاريه! فكانوا عضده القوي على الإصلاح!! ورجل يفعل
ذلك في إمارته الصغيرة، لا بد أن يأتي منه الخير الكثير إذا
استخلفه الله في الناس.. فقال سليمان في هدوء.

لقد استجبتُ إليك يا رجاء فاكتب عهدي إلى عمر، ثم
إلى يزيد من بعده، ومُر الناس أن يبايعوا من نصبتُ عليه



في كتابي دون أن يعلموا من يكون، وكانت فرصة سانحة
اهتبلها رجاء فصدع بما أمر وباع الناس.



كان عمر جالساً في بيته، لا يتطرق إلى ذهنه أنه أصبح
قاب قوسين أو أدنى من إمارة المؤمنين فسمع الطرق على
بابه ملحاً عاجلاً فخرج يقابل الوافدين في هدوء! فلقي
من ينعون إليه سليمان بن عبد الملك ثم يبشرونه بإمارة
المؤمنين.

لم تكسُ الشاشة وجه الخليفة الجديد بل امتقع لونه
امتقاعاً مُغبراً، ونظر إلى الأرض في صمت! وجعل يهزُّ رأسه
كالحائر اللهيف.

فصاح رجاء بن حيو! ما بال أمير المؤمنين!

فرفع عمر رأسه وقال: والله ما طلبتُ هذا الأمر قط! ولو
وددتُ أن بيني وبينه بُعد المشرقين فقال رجاء في صراحة:
أنت أحقُّ به من سواك! وقد شرفك الله به فهلّم إلى الناس
فنظر عمر إلى صاحبه وقال في دعة: مثلك يا رجاء في علمه
وجلاله يعلم أن الفقير الجائع، والمريض الضائع، والمظلوم
المتهور والشيخ الكبير في أقطار الأرض وأطراف البلاد! كل



واحد من أولئك غريمي ومخاصمي يوم القيامة!! له حقّ عليّ غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني فكيف لي بهولاء!!

فصاح رجاء في اعتداد: قم يا أمير المؤمنين إلى المنبر فالناس ينتظرون!!...

سار عمر إلى ما أراده الله له، فخطب الناس خطبة أوضحت منهاجه، وفصلت طريقته! فخرجوا يتفاءلون بعهده ويتحدثون عما ينتظرهم من رحمة وإحسان!! فلما هم بالذهاب إلى قصر الخلافة رأى مراكب فخمة تظهر عليها الجدة المونقة وقد هُيئت لتندرج في موكبه على وضع محدد معلوم فالتفت إلى خدامه مزاحم وسأل: ما بال هذه المراكب؟ فقال كبير حراس الخلافة: هذه مراكب جديدة لم تُركب قط، يمتطيها الخليفة الجديد أول ما يركب! وهي تنهياً من ساعة ميلادها لمثل هذا اليوم الشهير.

فعبس عمر عبسة معبرة وصاح بغلامه مزاحم:

يا غلام ضمّ هذه المطايا إلى بيت مال المسلمين.

وركب الخليفة بغلته المعتادة، ورمى ببصره إلى ما أمامه، فوجد سرادقات تزدان بالأثاث الباهر من نمارق وأرائك ووسائد! فسأل في دهشة ما هذا؟ فقال كبير الحراس وتلك سرادقات حديثة لم يجلس فيها أحد وقد أعدت



لاستقبال أمير المؤمنين، فنظر عمر مدهوشاً عن يمينه وعن خلفه، وفي عينيه استنكار صارخ لما يلحظ ثم قال لغلامه مزاحم: وهذه أيضاً ضمّتها إلى بيت مال المسلمين!!

وما أخذ مقعده في مجلس الخلافة في القصر حتى جاءه أولاد سليمان بن عبد الملك ومن خلفهم أثقال باهظة من الثياب المطرزة بالحرير، والقوارير المفعمة بالطيب، وقد قسموا الأحمال ثم قالوا هذا لنا، وهذا لك، فسأل الخليفة عما يشهد! فقال رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين لقد جرت تقاليد بيتك - ولعلك تدري - أن ثياب الخليفة الراحل وأدوات زينته وأبهته يُنظر فيها بعد موته! فما لبسه ولو مرة واحدة أو شم منه ولو شيئاً يسيراً فهو لورثته، وما لم يمس من الطيب والثياب فهو للخليفة الجديد.

فقال عمر: يا سبحان الله ليس لي منها شيء! ولا لورثة سليمان! يا مزاحم ردّها جميعها إلى بيت مال المسلمين.. وانصرف أبناء الخليفة الفقيد صُفْر الأيدي واجمين.



وكما فوجئ عمر بالخلافة فوجئت بها زوجته وابنة عمه إذ كانت فاطمة بنت عبد الملك، جالسة في بيتها لا تؤمل أن



تصبح قريباً زوجة أمير المؤمنين، وصاحب الأمر في الناس!!
فأتتها الأنباء العاجلة تُعلن أن الخلافة قد انتقلت إلى زوجها
الحبيب، وأحسّت في أعماقها فرحة هائلة!! إذ أن الخليفة
الراحل أخوها وابن أبيها، ولا بد أن يطوف بها ملم من
الأسى حين تذكر أن أغصان دوحها العالية التي أنبتها والدها
عبد الملك تتساقط شيئاً فشيئاً!! وتهب عليها الرياح القاصفة
بين الحين والحين.. ثم أخذت تعقد موازنة حائرة بين الأخ
والزوج! ولكنها رجحت كفة الزوج فجأة حين تذكرت أخاها
الوليد! ذلك الذي لم يرع لها حرمة الدم ووشيجة الثدي،
فرفض رجاءها، وأهان وفادتها حين خفت إليه ترجوه أن
يخفف قليلاً من اضطهاد زوجها عمر من ناحية، وأخيها
سليمان من ناحية أخرى، فما رجعت بغير الخيبة والخذلان..
إن أخاها مهما حمل اسم أبيها ملكٌ لغيرها من الإناث فهي
تصرف أمره وتملي عليه تحت ستار شفاف لا يراه بعينه،
ولكن تأثيره يظهر في تصرفه واتجاهه!! أما زوجها عمر فهي
التي ستصرفه وتوحي إليه بكل ما يريد، ولم تكد تسترسل
في أحلامها المقبلة، حتى وجدت نساء أمية يفدن إلى بيتها
يسارعن إلى تهنئتها ويحطن بها حفاوة وإكبار، ويبدن من
التزلف والإطراء ما ذاقت به طعم الرئاسة، والسلطان بعد أن
افتقدته طويلاً منذ كان والدها العظيم على ظهر الحياة!!



وقد طاف بها طائف التيه! فعرفت أنها من الآن أصبحت شيئاً آخر غير الذي كان، وأن مَنْ في الدولة العربية من العقائل والكريمات سيتوجهن إلى قبلتها، وسيلتمسن هديها، وسيقلدن عن تطلع خالب ما تلبس من زينة، وما ترضى من لباس!! وقد غصّت الدار بمن وفد إليها من بنات العم والخال فما تستطيع لكثرة من تشاهد أن تنتقل من مكان إلى مكان!! حتى إذا قضين حق التهئة والتعجب أخذن يتصرفن في توددٍ أمل ولم يبق غير القليلات ممن رُفعت بينهن الكلفة الشديدة وبين سيدة البيت، فلسن ممن يثقل عليها أن يمتد بهن الزمان على التلبث والمقام، وما مضت ساعات قليلة حتى جاء الخليفة يزور زوجته، وطاف بعينه الملهمتين في وجوه صواحبها، فعلم ما تخفي النفوس من مآرب! وما تتطلع إليه المهج من آمال... وأراد أن يقطع الطريق أمام من يظن أن بيت المال مورد للهبّة الجزيلة والأعطيات المترفة! وإنما هو حق المسلمين في المشارق والمغارب، فليس لعين طامعة أن تمتد إلى نشبه وذخائره!! فجلس بينهن في لطف، ونادى فاطمة زوجته! فأسرعت إليه على عجلٍ حيث فاجأها بقوله:

أين ثوب زفافك الحريري المرصع! فابتسمت ابتسامة المتعجب! وقالت: ولم يا أمير المؤمنين، فواصل سؤاله



يقول: أنا أحبُّ إليك أم ثوب الزفاف؟ فتعجبت كثيراً
لمقارنة بعيدة غير مقاربة، وتعجبت صاحباتها معاً تعجباً
ذهب بهن إلى الدهشة والاستغراب! ولكن فاطمة قالت في
ارتباك مأخوذ: أنت يا أمير المؤمنين أحبُّ إليَّ من كل شيءٍ
في الحياة!!

فابتسم عمر قوال: إذن عليّ بثوب الزفاف لأدعه في
مكانه اللائق...

فدهش الحاضرات أكثر من ذي قبل، وسألت فاطمة في
ابتسام مصطنع! وأين المكان اللائق به يا أمير المؤمنين؟
فبادرها الخليفة بقوله: بيت مال المسلمين يا فاطمة، فإن
قيمتها الثمينة لم تكن من ثروة عمي، ولكنها كانت من طعام
الجائع ومال اليتيم!!

فأطرقت فاطمة لحظة ثم انصرفت إلى حجرتها القريبة،
وأحضرت الثوب فأعطته للخليفة، وخرج به إلى حيث أودعه
مكانه الجديد!!

وتطلعت العيون إلى العيون، وهمت الشفاه أن تنطق
بعد احتباس!! ولكن روعة المفاجأة قد حبست الألسنة وقتاً
طويلاً، حتى نهضت إحدى عمّات عمر، وقالت في جراءة:
«هو حرٌّ مع زوجته! ولكنني سأعرض عليه مطلبي اليسير».



قالت فاطمة في بسالةٍ ساذجةٍ! هو ذا قريب منك فاذهبي إليه كما تشائين..!

ولم تكن صاحبة المطمع أن تسمع ذلك حتى فارقت صواحبها وانطلقت إلى أمير المؤمنين، فحيته في دعابة، وقالت متضحكة: أنت حرٌّ مع زوجتك يا عمر!! ولكن عمتك تريد حقها العريض، فنظر عمر إليها في أدب وقال: أي حق يا عمتاه!!

فقالت في صوتٍ مرتفع! ما كنت آخذه من عبد الملك والوليد وسليمان! وكم كنت تأخذين؟ عشرة آلاف دينار كل عام!!

فنظر عمر إليها نظرة مستنكرة وقال في حزم: لقد جاع الفقير، ومات المريض يا عمتاه لما تأخذين من مال الله!! سأعطيك والله كما أعطي نفسي.. أوتقبلين؟

فقالت في غضبٍ: وكم عطاؤك يا بني!!

فقال عمر: عطائي ما يمسك رمقي! فأنا أكل الخبز وألبس الخشن! وأشربُ الماء - فرمقته في تحدٍ ساخطٍ وقالت: كلُّ ما تشاء! وسنأكل ما نشتهي دون حاجة إليك! ولن نعرف بيتك يا ابن عبد العزيز...!! وخرجت إلى صاحباتها عابسة تصخب وتلوم.



لقد عرف أمير المؤمنين أن عدله في بيت المال يثير عليه خصومات أقاربه! ويهيج حقوق بين أعمامه وأجداده ففكر وقدّر ثم عزم على أن يسير سيرة الراشدين دون تحييز إلى قريب أو نسيب!! ولم يكد يبرح مكانه حتى استأذن عليه رجل من أهل حمص يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك في ضيعة اغتصبها الوليد من أسرته فدعا أمير المؤمنين روح بن الوليد وقال له: أردد عليه ضيعته! فقال روح في عناد: هي معي بسجلّ الوليد، فنظر أمير المؤمنين إليه غاضباً وقال: وما يغنيك سجلّ الوليد وقد قامت البيّنة على أن الضيعة للرجل! خلّها لصاحبها يا صاح. فقام روح غاضباً وأخذ يتوعّد الحمصيّ في الطريق! وجاء النبأ إلى عمر فأرسل كعب بن حامد حارسه وأمره أن يجبر روحاً على تسليم الضيعة فإذا عصى جاء برأسه، فلما لمس روح الجدّ في كعب سلّم الضيعة ساخطاً ناقماً، متباكياً لدى قرابته وذويه.



وخلا عمر إلى رجاء بن حيوة مستشاره وصاحب سره، فقال: يا رجاء لقد تكالب القوم من بني أبينا وعمومتنا على زهرة الدنيا وطمعوا في بيت المال! وقد ألزمتهم ما ألزمت به نفسي فورمت أنوف والتهبت أكباد! فبم تشير...؟



ففكر رجاء ملياً! وقال لقد تعودوا النعيم، فلا تحرمهم منه جملة يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: لقد خالفت نفسي ومنحتهم جميعاً عشرة آلاف دينار من بيت مال المسلمين فلم تشف غليلاً في صدورهم فماذا أصنع؟

فقال رجاء أعذرت إذن أمير المؤمنين!

فعضّ عمر على يده وقال: قد والله لقد لحقني من الندم ما أكل الكبد ولاع الجنان!! ولو استطعت أن أردّها يا رجاء لفعلت!! إنها لو قسمت بالسوية لكفت مؤونة أربعة آلاف بيت من المسلمين!! ثم سكت الصديقان لحظة ذهب فيها تفكيرهما كل مذهب!! حتى دخل كعب بن حامد، فقال مبتسماً: شعراء الدولة بالباب يهنتون أمير المؤمنين بالخلافة، ويجمعون حولهم الناس! فقلب عمر كفيه: وقال بعد زفرة طويلة: لم نكد نفرغ من بني مروان حتى قدم عليّ المداحون!! ابتسم رجاء في أدب، وقال ملاطفاً: وما في ذلك يا أمير المؤمنين لقد مدح كعب رسول الله وأجازه ومدح الخليفة عمر وأجازه، أليس لك قدوة في هذين.

فنظر عمر إلى رجاء كالمحتد وقال في صياح: أين ذهب عنك رشادك يا ابن حيوة؟ لقد كان الرسول يعطي اليسير



فبيلغ الرضا، وكان عمر كذلك يعطي في غير إسراف، ولكن بني أمية قد عودوا الشعراء عادات باهظة فقطعوا ألسنتهم بالبذر والذخائر يغتصبونها من دماء المسلمين! فتراجع رجاء في تسليم واعتراف! وقال يا أمير المؤمنين وفقك الله فأت أدري الناس بالناس! وعليك أن تعطي ولا تمنع! قليلاً كان عطاؤك أم كثيراً، وإلا اتهمك الناس بمعادة الأدب وأرجف بك الشعراء في كل مكان!!

فقال عمر في حدة: أوأصغي للناس يا رجاء...!!
دعهم يقولوا ما يشاؤون علم الله أني أحب من الشعر ما جاء كمذهب ابن الخطاب! فقد كان رحمه الله يطرب لشعر الحكمة، ويفضل زهير بن أبي سلمى لنصحه وتوجيهه! وأين فيمن يقفون على بابنا اليوم مثل زهير الحكيم!! وكلهم مقنع هجاء مجترئ مسراف!

فسأل رجاء متلطفاً ومن على بابك منهم يا أمير المؤمنين؟

فصفق عمر بيده فجاء صاحب بابيه كعب بن حامد وأعلن أن بالباب الفرزدق وعمر بن أبي ربيعة! وكثير عزة والأحوص. وجريز بن عطية.

فقال عمر: ليس فيهم غير جريز!! أمنعهم جميعاً سواء..



فدهش رجاء وقال كلا يا أمير المؤمنين كلهم شعراء
موهوبون!

فابتسم عمر وقال كأنك يا رجاء لم تفتن إلى مقياس
الشاعرية لدي! إن مقياس الشاعرية عندي ألا تغضب الله!!
وهؤلاء قد أغضبوه!!

فتبسم رجاء وقال متضحكاً: وما أغضبك من شعر ابن
عمك عمر بن أبي ربيعة وهو ذو قرابة ووداد...!! فقال عمر
في جدٍ: لا قرَّب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل:

ألا ليت أني يوم حانت مِنِّي
شَممت الذي ما بين عينيك والفم
ويا ليت سلبمى في القبور صحبتي
هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته تمنى لقاءها في الدنيا لا في جهنم وعمل عملاً
صالحاً، والله لا دخل عليَّ أبداً، فأسرع رجاء يقول: وكأنه
يستدرج الخليفة إلى الحديث عن الشعراء هذا عمر!! فماذا
أغضبك من شعر كثير؟ فأجاب عمر! أنسيت أني كنت والي
المدينة، وكان شعره مع صاحبه الأحوص يأتي إليَّ صباح
مساء! أليس هو الذي يقول:

رهبان مدين والذين عهدتهم
يكون من حذر العذاب قعوداً
لو يسمعون كما سمعت حديثها
خروا لعزة ركعاً وسجوداً

اعزب به، فقبحه الله وقبح خياله الأثيم!



فنظر رجاء إلى الخليفة متأملاً، وقال أسمعني ما نقت
من شعر كثير فماذا نقت من شعر الأحوص حفظك الله فقال
عمر، أبعد الله، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من
أهل المدينة جاريته.

الله بيني وبين سيدها يفرّ عني بها واتّبع!!
وقد كدت أقطع لسانه بالمدينة لولا ما أظهره أمامي
من التوبة الكذوب. فقال رجاء: أنت والله رواية يا أمير
المومنين!! فماذا نقت من الفرزدق؟

فأجاب عمر متبرماً ومن الذي لا ينكر مجاهرته
بالفحشاء، وفخره بالزنا إذ يقول:

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أتم الریش كاسره
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا أحيّ يرمى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأمراس لا بشعروا بنا ووليت في أعقاب ليل أبادره

اعزب به فوالله لا وطئ بساطنا أبداً..

فواصل رجاء سؤاله فقال يستدرج أمير المؤمنين! هؤلاء
هم المغضوب عليهم من الشعراء فماذا أعجبك من جرير؟

فقال عمر في هدوء: إن جريراً في غزل عفيف شريف
وله حنين صادق أمين اسمع قوله:

ذم المنازل بعد منزلة النوى والعيش بعد أولئك الأيام



طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقف الزيارة فارجمي بسلام
ثم ابتسم وصفق بيده فدخل كعب، فقال أمير المؤمنين
هذا وقت زيارة جرير، فادخله بسلام يا كعب!... دخل
الشاعر وحده دون أحد من رهطه المتزاحمين، فأعجبه أن
يكون الفريد المختار ولما مثل بين يدي عمر وهم بإنشاد
قال له في أدب: اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً، فقال جرير
هو ذاك يا أمير المؤمنين واندفع ينشد:
إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
جاء الخلافة إذ كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر
فقال عمر أسرفت يا جرير كفى كفى قد والله وليت هذا
الأمر وما أملك إلا ثلثمائة درهم من المال فمأته أخذها
عبد الله، ومأته أخذتها أم عبد الله يا غلام أعطه المائة الباقية
فبغت جرير، ولكنه كتم انفعاله، وعجل بقول هي والله أحب
مال كسبته في الحياة يا أمير المؤمنين!! وخرج الشاعر
فبحث الشعراء عما في يده في لهفة فرأوا مائة درهم لا تزيد!
فتفرقوا مسرعين، ثم حان وقت الصلاة فاندفع رجاء وعمر
يصليان!!



علويّ ثائر

جلس هشام بن عبد الملك في خاصة بني أمية يتحدث
عن شؤون الخلافة، وأمور الحكم، ثم قال مزهواً لمستمعيه:
لقد اطمأنت بي وسائل الأمن فما أخاف ثائراً يهب، أو
مشاغباً ينهض، وقد جعلت على الولاة عيوناً وأرصداً
في كل فج فما تلبث أن تأتيني الأنباء عنهم بما يخفون
وما يعلنون!! على أنني قلقٌ لهذه البلدة التي تجمع نسل
أبي تراب، وتضم إليهم من سخف عقله! واضطرب هواه
فأنا منها في جهدٍ حائرٍ، وقلقٍ أكيدٍ، وسيقدم الآن أميرها
خالد بن عبد الملك بن الحرث، لأستطلع ما عنده من الأنباء،
وعليكم أن تشتركوا معي في الأمر اشتراكاً بصيراً لأتبين
مواضع السداد، فأعرف ما يرأب الصدع ويسد الفتوق.

قال قائل ممن يستمعون: إن الولاة يا أمير المؤمنين لا
يتحدثون إليك عن الواقع الصريح فكل أمير على مدينته



يدعي أنه وطّد الأمن وأزال الخلاف، وأن إمارته حصن
سابغ تلوذ به الخلافة، ومعقل مصون يدرأ الفتن والأعاصير!
فكيف يصدقك خالد بن عبد الملك الحديث!!

فأجاب هشام في ثقة: لقد خيّرت خالدًا، فهو يرأسني
بما يقع أمامه عن صدق وأمانة، إذ أن عيوني عليه يبعثون
إليّ بمثل ما يبعث من الأنباء! فلو كان الرجل مدهناً خادعاً،
لأنكشفت رسائله عن المداهنة والخداع.. ولعلكم تعرفون
أنني كنت قبل الخلافة والياً على المدينة فأنا بها أدرى وأعلم
ولن يستطيع والٍ ما أن يخفي عني شيئاً لمستَه بيدي!!

فقال بعض الجلساء: وماذا يقول خالد في رسائله لأمر
المؤمنين؟!

فقال هشام: إنه يتحدث بمرارة عن آل الحسن وآل
الحسين، وسأحضره إليكم الآن فهو على باب من الصباح
ينتظر الإذن.. وسأناقشه مناقشة دقيقة!! لتفهموا عنه ما
تريدون.. ثم صفق بيده وأمر حاجبه بدعوة خالد.. فأتى على
عجلٍ وأخذ مكانه في أدب وقور بين المجتمعين..

قال هشام - في تودّد - لقد كلفناك صعباً حين دعوناك
إلينا من المدينة، فتجشمت مرهقات السفر في قيظ محرق
وطريق عسير.



فابتسم خالد بن عبد الملك متشجماً ثم قال في ملاطفة
لو أمرني أمير المؤمنين أن أصعد إلى السّماء لحاولت! فكل
أمره حبيب أثير.

فنظر الخليفة إلى وجوه القوم لحظة، ثم توجه إلى خالد
يسأله، وماذا تحمل إلينا من الأنباء!! لعلك تصدقني الحديث.
فردّ خالد بلهجة حازمة وقال: أيدّ الله أمير المؤمنين،
فإن كرمه قد شمل المسلمين فما يستطيع أحد أن يتخلى
عن طاعته وهيبته.. وإن المدينة كلها رقاب منقادة ورؤوس
مطرقة، ومن يضمّر الكراهية من آل تراب لا يستطيع أن
يعلن، فأنا من ورآئهم أسترّق السمع، وأقطع الطريق!!

قال هشام: لقد جاءني الأنباء عن يقظتك ووفائك يا
خالد!! ولكني أريد تفصيلاً وافياً عما تقوم به إزاء هؤلاء...
ومعي في المجلس صفوة أحبابي وخيرة أعواني، وهم لا بد
منصتون متأملون! فأجلّ النقاب عن كل خافية مستترة، لنصل
إلى علاج سديد فتأمل خالد وجوه الحاضرين كمن يحاول
أن يستشف بالنظرة المثبتة ما تمور به الخوارج المقنعة من
أحاسيس ثم قال على مهل وعينه إلى هشام:

إن الناس بالمدينة يكتّون لآل أبي تراب حباً صادقاً،
ويبدون لنا طاعة ظاهرة فرقابهم تحت أيدينا، ولا عن قلوبهم



ليست في قبضتنا، وأنا أعاملهم على هذا الاعتبار.. فأبذل
الجهد المتيقظ في تكبيل الألسنة، وإغضاء العيون.

فردّ هشام في يقظة: لو قلت غير ذلك لكذبتك وبادرتُ
بعزلك، فقد كنت من قبل - والياً على المدينة وشاهدت من
وفاء أهلها لآل أبي تراب ما أدهش تفكيري، وأثار حيرتي،
وما كنت بمستطيع أن أحول الوفاء إلى بغضاء، بل كنت
أحاصر النار في مندلعهها المشبوب كيلا تمتد إلى مكان آخر،
فتعمّ النكبة ويسوء المصير.

فقال يوسف بن عمر الثقي وكان من الحاضرين: إن
الحال كما أرى قد تبدل يا أمير المؤمنين فقد كنتُ والياً على
المدينة إذ كان بها علي زين العابدين ابن الحسن، وهو بقية
السيف من موقعة كربلاء من أبناء الحسين وكان في عبادته
وأخلاقه مضرب المثل بني الناس، فكان المدنيون يحبونه
لذاته ويعتصمون به اعتصاماً قوياً.. أما الآن فقد مات علي
فتفرق الناس عن شيعته، ولم يجدوا منه بديلاً يحتل مكانته
ذات الهيبة والجلال...

فقال هشام موافقاً: لقد أرقني عليّ هذا، وأطار النوم من
عيني، فكنت أراه بالمسجد يؤم الناس فإذا فرغ من صلاته
أكبوا عليّ يده تقبيلاً، وإذا خاطبه أحد انحنى أمامه عن حب



وشغف لا عن هيبة وإرهاب، وإذا سار في طريق تجمع
الناس يفسحون له المكان، وتلمس العامة ثواب الله في اقتفاء
خطواته، وتأمل وجهه البسام!! ولن أنسى أنني ذهبت إلى
مكة ذات عام للطواف حول البيت فرأيت من ازدحام الناس
ما أوقفني عن الطواف، فبحثت عن كرسي أنتظر عليه حتى
يهدأ الناس، وشخصت ببصري لحظة فوجدت الزحام ينفرج
فجأة وقد تدافع الحاضرون عن أمام وعن خلف يفسحون
الطريق! فنظرت فإذا علي زين العابدين يقدم للطواف ووراءه
أفواج العامة يتبركون بظله! فقلت من هذا كالمجاهل؟
فسمت من يقول مرتجلاً دون أناة:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائَتُهُ	وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ	هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
إِذْ رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا	إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

فأطرقت عابساً، وقد ذاع الشعر كالبرق ورواه جميع
الناس!! فما رأيك يا خالد؟! فنظر الوالي نظرة مهذبة، ثم
قال: لقد حكى يوسف بن عمر أن علياً زين العابدين قد مات
ولم يترك بديلاً يحتل مكانته في الناس، ولكنني أعرف عن
يقين أنه ترك بديلاً قوياً ورث عنه هيئته وإجلاله!! ذلكم هو
زيد بن علي زين العابدين!



فهزَّ هشام رأسه! وقال في تأوه: زيد بن علي! لقد أتتني
عنه الأنباء فكيف تراه!

قال خالد: يا أمير المؤمنين لقد رزق هذا الشاب فصاحة
نادرة لم أرها في إنسان، وقد سمعته يناقش الفقهاء في
حلقاتهم الدراسية فوجدتهم ينقطعون أمامه فما يقدر
على مباراته، فإذا جلس مجلس الوعظ تشقَّق لسانه عن نبع
سلسال وافق تهيم به الأسماع!! أما إذا سار في الطريق فلن
أجد وصفاً لجلاله وهيبته غير ما حكاه أمير المؤمنين عن
والده علي زين العابدين، لأن الناس هم الناس!!

فقال يوسف بن عمر: ولم تترك الناس يتحلقون حوله
في المسجد، ويسيرون وراءه في كل مكان دون أن تأخذ
عليهم السبيل!!

فقال هشام في سرعة: صه يا يوسف! لقد حاولت ذلك
مع علي فلم أستطع، كنت أتهدُّ الناس، وآخذهم بالوعيد
حتى أظن أنهم قد افتزقوا عن علي ثم أنظر فإذا الكثرة
الكاثرة تتزاحم على مجلسه، وتتكالب على طريقه! وقد
ذهب الوعيد هباء دون خوف واكتراث!!

فنظر أحد الحاضرين طويلاً إلى خالد ثم سأله في أدب:
أستطيع أن تصف زيدا كأني أراه... فابتسم هشام وقال:



كنت أريد أن أقول هذا السؤال، فأجب يا خالد دون إمهال!
فقال الوالي في جدّ واهتمام: هو يا أمير المؤمنين شاب قوي
يبدو كفارس في ميدان، ويضئ وجهه بالنور كأن قمراً يلوح،
وله لحية سوداء تكسوه جلالاً ورونقاً، فإذا سار وجدت
إنساناً وسطاً لا إلى القصر أو الطول!! ولا إلى السمنة أو
الهزال... أما إذا سمعت فصوت ممتلئ رنان!! وحديث
مؤثر خلال!! وهو يقرأ القرآن بقراءة أثرت عنه، ويقول أنه
أخذها عن أبيه، وقد افتنن بها المدنيون فلا يقرؤون غيرها
القرآن... بل إنهم يتناقلون كلماته وعباراته، ففي كل يوم
يتحدثون، قال زيد كذا بالأمس، وقال زيد كذا اليوم!! حتى
حرتُ ماذا أصنع، وقد ضاع ما بذلت من الجهود.

فاعتدل يوسف بن عمر الثقفي وقال في اعتداده: أتحدثنا
- بإذن أمير المؤمنين - عن بعض ما أتيتُه من إرهاب زيد،
وإهانة شيعته، لتعلم بعض ما كان؟ فقال هشام لخالد: قد
أذنت فأوجب بما تراه!

فأطرق الوالي قليلاً كأنه يجمعُ خواطره، ثم رفع
رأسه، وقال في ثباتٍ: علمتُ ذات يوم أن خصاماً
عنيفاً نشب بين زيد بن علي بن الحسين وابن عمه
جعفر بن الحسن بن الحسن، وقد شاع خبره في المدينة،



فأردتُ أن أشعل الفتنة ليزيد بينهما السباب واللغو،
 فينخفض قدرهما في الناس!! فأحضرتها على الملاء قريباً
 من المسجد، وقلت لجعفر ما تقول في ابن عمك زيد، فبدأ
 ينتفض ويغلظ القول، فأسرع زيد يقول لابن عمه - وقد تنبّه
 إلى ما أريد - لا تعجل، يا أبا محمد، اعتق زيد ما يملك
 إن خاصمك إلى خالد أمير المدينة، ثم انسحب من مجلسه
 وقال يخاطبني! أجمعت ذرية رسول الله لأمر ما كان يجمعهم
 عليه أبو بكر وعمر بن الخطاب!! فأغريتُ به أحد صنائعي
 من آل عمرو بن حزم! فسبّه بأمه وأبيه!! ولكن الناس صاحوا
 به: اسكت قطع الله لسانك وأخذ بعضهم كفاً من حصباء
 ورمى بها في وجهه! فأطرق على خزي مشين!! ثم انتهى
 المجلس بين نظرات الشامتين وصيحات الغاضبين!

قال أحد الحاضرين: ألا تستطيع أن تعارض زيدا في علمه
 ووعظه، فتأتي بفتاويه من الشام أو العراق تصطنعه ليقعد له في
 مجلسه مقعد المخالف المنابذ فينصرف الناس عنه إلى حين!!
 فقال هشام: لا يا قوم! نريد حلاً عملياً، فالرجل فقيه
 بصير روى عن أبيه وعن جده!! وقد أشرب المسلمون
 تصديق ما يقول دون نزاع، فلو عارضه أحد العلماء ما استمع
 إليه في شيء، ولباء لأول مجلس بالخذلان والكنور..!



فقال خالد في أدب: وَمَنْ يعارض زيدا في عمله! إن واصل بن عطاء، وجعفر بن الصادق، وأبا حنيفة فقيه العراق، وغيرهم من فقهاء الملة يتعبدون بأرائه، ويفتون باتباعه!! ولن يستطيع الوالي أن يضع قدر رجل يبجله الأئمة من الفقهاء والمحدثين.

قال هشام: هذا كلام سديد يا خالد، فلتبحثوا جميعاً معه إذن عن حلّ مفيد، فتطلع خالد بن عبد الملك إلى هشام كمن يهمل بالحديث، فأدرك الخليفة ما في نفسه، وقال في هدوء: أرى على شفئك كلاماً!! فقل ما عن لك من الرأي.

فقال خالد بن عبد الملك: لقد علمتُ من أهل المدينة أن والد زيد كان لا يبرحها إلى بلدة من البلدان غير مكة في موسم الحج، ولكنني أشاهد زيد ابن عم علي يوم البلدان النائية، فيقصد العراق والكوفة، وبعض ديار الشام!! وإنه ليقابل الولاة في كل مكان يحل به، فيخدعهم عن قصده السياسي ويتظاهر بالفقه والحديث، وقد قيل لي أن خالد بن عبد الله القسري قد استضافه وأودع لديه كثيراً من الأموال، وأن له بالكوفة لأنصاراً من الشيعة، وبقية ممن ألمهم مصرع الحسين فهم يتمسكون بإمامته ويرون فيه رجل الموقف، وسيد الجماعة!! وهأنذا أدلي إليكم بجميع ما



تطرق إليّ أن صدقاً وإن كذباً، وعليكم أن تميزوا الباطل من الحق، وتضعوا الخطة السديدة في وضوح:

فقال هشام: لقد سرني من خالد إخلاصه وثباته، وأعجبني صراحته الجريئة التي يتحاشاها كثير من الولاة، فراراً من التبعة ورياء آثماً لصاحب الأمر، وإني لأثبتته في مكانه بالمدينة آملاً أن يبذل ما أعهده لديه من حيلة وكياسة ليهدم كل متطلع متوثب عامل على تأليب الثوائر وتأريث الأضغان!! فقال قائل يوجه حديثه إلى الخليفة: وماذا يصنع أمير المؤمنين في خالد القسري، وقد صادق وحالف المتربصين؟

فقال هشام: لا أظن ما نقل عن خالد القسري صحيحاً معقولاً، لأنه يعلن آل أبي تراب جهرة على منابر العراق كل أسبوع! فكيف يسدي إليهم مال الخلافة وينتقصهم ويزدريهم أمام الناس!!

فقال يوسف بن عمر الثقفي يستدرك على هشام: يا أمير المؤمنين لا تعارض بين الناحيتين، لأنه حين يعلن آل أبي تراب يعبر عن رأي الخلافة، ولكن حينما يسدي إليهم... يعبر عن ولائه وحبه وما نستطيع أن نبرئه من هوى القوم دون شاهد أكيد فلتحسم الشك باليقين.



فأطرق أمير المؤمنين بضع لحظات.. ثم نظر في وجوه
القوم قائلاً: لقد عزلت خالداً عن العراق دفعاً للشبهة فقط،
ووليت مكانه يوسف بن عمر ليسد في إمارته مسداً لن يبلغه
سواه أما خالد بن عبد الملك فقد ثبتته على المدنية واثقاً كل
الثقة في كفايته وإخلاصه!!

ثم نهض ليقوم فأدرك الحاضرون رغبته في انتهاء
الحديث فأسرعوا متسللين.



سار يوسف بن عمر الثقفي إلى العراق وجعل يتحسس
خطوات زيد فيسأل متى كان بالكوفة ومتى رحل إلى
البصرة وعند مَنْ كان يلقي برحله في الغدو والرواح!! ثم
أخذ يدوّن أسماء من يعرف عنهم حياً متوارثاً لعلي وشيعته!
ويزيد فيفاجئهم في منازلهم متسللاً مفتشاً، حتى ألم بكثير
من مواقف زيد، وعرف عن يقين ما كان يتناقل في مجالسه
الخاصة من دعوة صريحة إلى إمامة عادلة رشيدة تهتدي
بهدي الكتاب، وتأمّر راشدة بالمعروف وتنهى عن النكر،
وقد نصب يوسف أرصاده في مناحي العراق، وأقام العيون
بين المدينة والكوفة لتأتيه بأخبار زيد في ترحاله وحله، حتى



علم ذات صباح بقدومه إلى الكوفة، فخفَّ إليه في بطش، وأغلظ له القول في مهانة وغلظة، وزيد يُجيبه إجابة مسكنة تزيد من غضبه وتؤجج الضغينة في فؤاده، ثم زاد فاتهمه بإحراز مال كثير عن طريق خالد القسري، وواجهه بخالد وكان في محبسه، فأنكر الرجلان في تصميم حاسم ما ادعاه يوسف.. فما ازداد إلا لجأجأ وعتواً في طغيانه.. وشاء زيد أن يضع حداً لهذا الوالي المتهور فرحل إلى دمشق ليطلع هشاماً على ما يقوم به من إرهاب شنيع.. وكان زيد يظن أن هشاماً سيستمع إليه كصاحب طلامة ينتصر لنفسه بعد اعتداء غاشم!! ولا ندري لماذا نسي هذا الألمعي الحصيف أنه يستجير من الرمضاء بالنار، وأن يوسف يستمد جبروته من طغيان هشام وعتوه!! لعلَّه عرف ذلك عن يقين! ولكنه أراد أن يقنع شيعته بالكوفة وغيرها من مدن الإسلام بدليل ملموس على فساد الحاكم واعتسافه! يأتيهم به عن مشافهة ومشاهدة فلا يقبل طعناً لطاعن أو تقولاً لمحتال...

ظل زيد ممنوعاً أمام قصر الخلافة بدمشق محجوباً فلا يؤذن له في المثل، وهو يرى بعينه وفود المرائين ومواكب المتزلفين يقدون ويروحون دون حجاب موصد، أو رتاج يقوم! حتى إذا ألحف في الطلب جاءه الإذن المتمنع فدخل ليشهد أمير المؤمنين جهم الوجه بادي الغضب، متطاير



الشرر، يقول له في غطرسة: لقد خدعتك نفسك يا زيد، أنت الذي تنازعك نفسك بالخلافة وأنت ابن أمة!!

ما هذه المواجهة الصاخبة؟! لو كان الذي يخاطبه الخليفة فرداً عادياً لارتاع في موقعه، وطارت الكلمات من لسانه فلا يجد ما يقول، ولكن زيدا الرصين الفصيح ينظر في حزم، ويقول في رباطة جأش وقوة وإيمان:

«اسمع يا هشام إنه ليس أحدٌ أولى بالله ولا أرفع درجة عنه من نبي بعثه للناس!! وقد كان إسماعيل بن إبراهيم ابن أمة وأخوه ابن حرة صريحة!! فاختره الله وأخرج من ذريته خير البشر، وما على أحد إذا كان جده رسول الله ﷺ وأبوه علي بن أبي طالب أن تكون أمة أمة من السند أو من أي مكان!!»

فأخذ هشام بما سمع من المنطق المفحم وما قدر أن يجيب... وظلّ حائراً يرمق جالساً به حتى إذا اشتد به الحنق صاح في غضب: اخرج، اخرج!! فابتسم زيد في استخفاف وقال: «سأخرج ثم لا أكون إلا حيث تكره وتضيق!!»

وقد أنجز زيد ما قال فارتحل إلى الكوفة لينادي بالثورة ويدعو الناس إلى مبايعته على الجهاد، وأعلن لهم خطته في ردّ المظالم ونصرة الحق وقسمة الفيء بين أهله على السواء



والفصيحة لله في السر والعلانية فبايعه خمسة عشر ألفاً من الكوفة ثم انضم إليهم نفر كثير من واسط المدن المجاورة ثم بلغ المبايعون أربعين ألفاً!! وتخرج الموقف في دمشق فباتت على شر عظيم!!

كان العقلاء من آل بيت رسول الله لا يثقون في أهل الكوفة مثقال ذرة، فقاموا بنصيحتهم لزيد، وأخذوا يجادلون بمنطقهم المتحفظ، وهو يرد عليهم في ثقة وإيمان، وقد قال له داود بن علي بن عبد الله بن العباس في بعض نقاشه: يا ابن العم إن هؤلاء يغرونك من نفسك، وقد خذلوا من كان أعز عليهم منك خذلوا جدك علي بن أبي طالب حتى قتل، وخذلوا جدك الحسين حتى استهشد، وقد حلفوا لهما أوثق الإيمان كبعض ما حلفوا لك فأين تكون!!

فقال زيد: لقد كان معاوية يقاتل بدهائه ويزيد بدافع بقوته!! والآن لا دهاء ولا تماسك فانسحب داود ولم ينطق!

وجاء سلمة بن كهيل فقال لزيد: رحمك الله كم بايعك من هؤلاء؟ فقال أربعون ألفاً، فقال سلمة: وكم بايع جدك الحسين؟ فقال زيد: ثمانون ألفاً، فقال سلمة: وكم بقي معه؟ فقال زيد: ثلاثمائة فقط!! فقال سلمة في أسف وحيرة:



واعجبا أبقى معك أكثر ممن بقي مع الحسين فلم يصغ زيد إليه!! وواصل العمل دون مبالاة.

وجاء شيعي مخلص من خاصته، فقال في أدب: يا ابن رسول الله لم ترد على داود بن علي وسلمة بن كهيل رداً شافياً فما قولك، وقد جادلناك!

فابتسم زيد في مرارة وقال: والله إنني لأعلم أن أهل الكوفة لا يصدقون في لقاء!! ولكن العيش في كنف المذلة دناءة وعار، وقد شاهدت من طغيان هشام وجبروته ما حجب إلى الاستشهاد في سبيل الحق، حتى يقول الناس: لقد أنف قوم من الإذعان للطغيان فلقوا الله شهداء أبرياء!!

فأطرق الشيعي معجباً وقال في إكبارٍ بالغ: انهض لما تريد جعلني الله فداك وسأنشط في الدعوة إليك عن يقين وإيمان.

كانت الجموع تتزاحم حوال راية زيد، فأنصاره يتزايدون كل يوم ويبدون من الحمية والغيرة ما لا يشك أحد معه في نجاح الثورة، وغلبة الناقمين، إلا أن ذوي الحنكة ممن خبروا رجال الكوفة يرون وراء الستور فتوقاً توشك أن تتسع فتكشف عن بلاء محقق وشر مبيد!

وقد عقد هشام مجلس مشورته بدمشق لينقذ سلطانه مما يهدده من أخطار!! نعلم أن المال معجزة الإنقاذ، وباب



النجاة، فأخذ يسوقه على الإبل في قوافل متتابعة لتشره
هناك في أرباض الكوفة وفوق مشارف العراق، ثم بالغ في
الخدعة فاستمال فريقاً من ذوي الأطماع، وأمرهم أن يسألوا
زيداً بن علي عن أبي بكر وعمر ليجيب بما يوقع الشقاق في
رهطه فينقسمون عليه وتضعف ريحه فلا يجد ظهيراً يعين!!

لقد نشط زيد بجماعته إلى القتال، وسار إلى الحومة
الحمراء بجنان ثابت، ونفس متوقدة فوجد نفراً ممن بايعوه،
يعترضون طريقه ويسألون:

ما قولك رحمك الله في أبي بكر وعمر!

فقال في سرعة بادهة: غفر الله لهما ما سمعت أحداً من
أهل بيتي تبرأ منهما وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً.

فقالوا: فلم تطالب إذن بدم أهل البيت؟

فأجاب في ثقة: إن أشد ما أقول فيمن ذكرتم أننا كنا
أحق بهذا الأمر ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه
وقد عدلوا وعملوا بالسُّنة والكتاب.

فقالوا في خبث: ولم تقاتل الأمويين إذن؟

فقلب زيد كفاً على كف وقال يا سبّحان الله: أبو بكر وعمر
عادلان طاهران وهؤلاء ظلمة آثمون، فأين الأرض من السماء؟!!



فانقضوا من حوله متذمرين، وقد أشاعوا الفوضى ومالوا إلى الفتنة والإرجاف، ولكن زيداً لم يتراجع فواجه بالقلة القليلة ممن ثبت معه على الحق جيوش الدولة الباطشة ذات الحشد الكثير، وتلاحقت حوله نجدات بني أمية من الشرق والغرب فما ضعف أو استكان بل واجه السيف في مآزق حرجة تمت له فيها السيطرة والانتصار، لولا أن الرماة من أعدائه قد عمدوا إلى السهام، وليس في ملئه رام واحد يدفع النصال بالنصال، فاتجه إلى قلبه سهم صادف منه مقتلاً أليماً... فلقي ربه شامخ الرأس موفور الكرامة، وتفرق أتباعه حائرين جزعين..

وجلس هشام يتحدث عن هزيمة غريمه!! منتشياً فخوراً بما تم لجيوشه من الظفر الباهر، والتفوق الحميد ثم سأل عن جثة الشهيد الصريع فعرف أنها أدرجت في التراب فأمر أن تصلب على مرتفع بالهواء ليطوف الأنصار آسفين متأوهين ويرمقها الأعداء فرحين شامتين!!

وارتقى البطل الشهيد إلى الأوج ميتاً!! فكان لواءً ناطقاً بالثأر يستنهض الأباة ويوقظ الغافلين.



مصرع شاعر

الوقت أصيل، والنسيم يهبّ ملاطفاً الوجوه في مجلس
هشام بن عبد الملك بقصر الخلافة، وقد جلس الناس صفوفاً
بين يديه، ووفد إليه الشعراء من مختلف العواصم ينشدون
مدائحهم، ويبالغون في ثنائهم العريض، وأمير المؤمنين
يسمع مبتسماً مزهوّاً، ثم يعقب على كل شاعر بما يراه في
شعره ملتمساً جانب الجودة، ومتغاضياً عما وقع فيه الشاعر
من هفوات!! وجلساؤه طربون، يظهرون الإعجاب، ويدّعون
الفهم والتبصر، فإذا استحسن الخليفة معنى أيدوه وبالغوا في
تقريظه، حتى تحير هشام لا يدري أستمع ثناء الشاعرين في
القصائد أم إلى مادحي نقده، ومؤيدي رأيه من الجالسين!!
وقد أحسّ بموجة من الغرور تسري في كيانه فترنح من
أعطافه إذ تخيل أن جميع ما يسمعه من الإطراء حق صريح
لا يبلغ الباطل في كثير أو قليل، فما فرغ الشعراء من الإنشاد
حتى التفت إلى جلسائه يقول:



إن الشعراء لسان الدولة الناطق، وترجمانها الصادق!!
وقد اطمأنت إلى رضا الرعية وسلامة الدولة حين سمعت
القوم يبلغونني في قصائدهم الضافية حبّ الأمة و طاعة
العامة!! ولا عجب فقد خالطوا الناس وقرؤوا مشاعرهم
وصوِّروا نوازعهم فيما ينظمون من الكلام، وأنا لا أجزى
الشاعر بعطائي الجزيل لأنه مدح فأسهب بل لأنه رسم
الصورة التي رآها بعينه فنقلها عن معاصريه من القبائل
والبطون!! فقرَّب لنا النازح، وأدنى البعيد.

قال مسلمة بن عبد الملك شقيق أمير المؤمنين: لقد
صدق الخليفة في حديثه عن الشعر وتقديره للشعراء، وقد
رأيت والدي عبد الملك رحمه الله يجلس إليهم ساعات مديدة
فيطرحهم القول ويعارضهم الرأي وسمعتة يروي عن كل
شاعر سمع به! وله عند كل بيت وقفة وفي كل معنى رأي!!
وأعتقد أن الخليفة حفظه الله قد نزع عن قوس أبيه حين قدر
رسالة الشعر، فتفهم القصائد وأجاز الشعراء...

فابتسم هشام في زهو، وقال: لقد أثلج صدري أن جميع من
يؤبه لهم من الشعراء في أصقاع الدولة العربية قد تدافعوا إلى
تسجيل مكارم أُمِّيَّة! وتخليد مآثر بني مروان!! ولا أعرف شاعراً
شهيراً وقف منهم موقف القادح البغيض إلّا ما ترامى إلينا من



شذاذ الخوارج وفسدة الأعراب، ولو شئت أن أستأصل شأفتهم في الكهوف والمغاور بين التلال والوهاد لفعلت، ولكنني أترك كل قائل يقول: والحق حتى لا تعصف به الأراجيف!! فإن عقبة بن سعيد بن العاص على أذن هشام! وقال هامساً، لقد تذكرت شاعراً بالكوفة أساء القول، وبالع في الإسفاف، ولا أرى أن يسكت عنه أمير المؤمنين، فله من المعجبين هناك من يحفظون قبائحه ويرون أهاجيه!! وللحلم حد لا يتعداه.

فتضحك هشام وقال في استهتار، قلتُ لك إني لا أعبأ بشذاذ الخوارج، وفدة الأعراب فدعهم وما يقولون!

فواصل عنبة همسه إذ قال: ليس الشاعر خارجياً، ولكنه شيعي متعصب!! وهو فقيه ضليع يحفظ القرآن ويروي الحديث، ويسوق منهما أدلة قاطعة على ظلم الدولة ويجمع أهل الكوفة على محبة آل أبي تراب!!

فقطب هشام جبينه كالمتبرم وقال هامساً - يشير في خفاء إلى الحاضرين - لي معك عنه حديث إذا انصرف القوم، فانتظر معي إذا استأذن الناس!!

وتحوّل الخليفة إلى جلسائه يطارحهم القول ويتبسط معهم فيما يخوضون فيه حتى انصرفوا أرسالاً مستأذنين!! وخلا هشام إلى عنبة يستوضحه الحديث.



قال هشام: أعد عليّ نبأ هذا الشيعي الكوفي وأسمعني
بعض ما قال من الكلام.

فقال عنبسة: علم الله لقد جاءتني الأنباء عنه محرجة
أسيفة، فانتهزت الفرصة اليوم، لأبلغ أمير المؤمنين بعض
ما وقعت عليه!! والشاعر شيعي من بني أسد يدعى
الكميت!! وله قصائد ذائعة تعرف بالهاشميات ينشدها في
أرباض الكوفة فتترنم بها السهول والهضاب، وتسير بذكرها
الركبان!! فردّ هشام في غضب ساخط: وماذا يبغي هذا
الأحمق من بني هاشم! وليس فيهم من يجزل العطاء كما
نجزل، ولو كان ذا كياسة ودراية لوفد إلينا مع الوافدين!
فأبلغناه بعض ما يطمح إليه ذوو نحلته من المدّاح!!

فردّ عنبسة يقول في صراحة ناصحة: يا أمير المؤمنين
إن الرجل كما أرى صادق العاطفة مخلص العقيدة لا يرجو
بشعره ثراء يتدفق أو حظوة تنال، وقد فخر به آل علي
وجمعوا له من مال الرجل وحليّ النساء قدراً ثميناً لو ادخره
لكان ثروة هائلة تسعده وتحياه! ولكنه رفض جميع ما
تقدموا به في إباء، وقال ما معناه: لم أمدحكم لدينا أنالها،
ولكنني أرجو مثوبة الله فلا أكررها بعطاء إنسان! وإني لأرجو



من أحدكم ثوباً واحداً مما مس جلده لأحمله معي، فيكون
ذخيرتي في القبر، وشفيعي حين ألقى الله!!

فاحمرّ وجه هشام حتى صار جمارة تتوقد، وقال لعنيسة:
ألا تسمعي بعض ما قال. فقال ابن سعيد في تأدب سأنشد
على كره مني إن أذن أمير المؤمنين، فقد حفظت هذا الشعر
المأفون عن كراهية، وإن له لدعاً على الأكباد وغمزاً في
القلوب.

فعجل هشام يقول في سرعة: لا عليك، وأسرع بالإنشاد
فأخذ عنيسة يروي:

وَهَلْ مُدْبِرٌ بَعْدَ الإِسَاءَةِ مُقْبِلٌ	أَلَا هَلْ عَمَّ فِي رَأْيِهِ مُتَأَمِّلٌ
فِيكْشِفُ عَنْهُ النَّعْسَةَ الْمُتْرَمِّلُ	وَهَلْ أُمَةٌ مُسْتِيقِظُونَ لِرَشْدِهِمْ
وَأَفْعَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ	كَلَامُ النَّبِيِّينَ الْهُدَاةِ كَلَامُنَا
عَلَى أَنَّنَا فِيهَا نَمُوتُ وَنُقْتَلُ	رَضِينَا بِدُنْيَا لَا نُرِيدُ فِرَاقَهَا
فَحَتَّامَ حَتَّامِ الْعَنَاءِ الْمُطَوَّلُ	فَتَلْكَ مَلُوكِ السَّوْءِ قَدْ طَالَ مَلْكُهُمْ
فَقَدْ أَيَّمُوا طَوْرًا عِدَاءً وَأَثْكَلُوا	رَضُوا بِفِعَالِ السَّوْءِ فِي أَهْلِ دِينِهِمْ
وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلُ	تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ
لَأَجَوَافِهَا تَحْتَ الْعَجَاجَةِ أَرْمَلُ	وَمِنْ عَجَبٍ لَمْ أَقْضِهِ أَنَّ خَيْلَهُ
حُسَيْنًا وَلَمْ يُشْهَرِ عَلَيْهِنَ	يُحَلِّتْنَ عَنْ مَاءِ الْفُرَاتِ وَظِلِّهِ
عَلَى النَّاسِ رُزْءٌ مَا هُنَاكَ مُجَلَّلُ	وَغَابَ نَبِيُّ اللَّهِ عَنْهُمْ وَفَقْدُهُ



يُصِيبُ بِهِ الرَّامُونَ عَنْ قَوْسٍ غَيْرِهِمْ فَيَا آخِرًا سَدَى لَهُ الْغَيِّ أَوَّلُ
فَلَمْ أَرْ مَخْذُولًا أَجَلَ مَصِيبَةٍ وَأَوْجِبَ مِنْهُ نَصْرَةً حِينَ انْخَذَلَ
إِذَا شَمَرَتْ فِيهِ الْأَسْنَةُ كَبُرَتْ غَوَانَهُمْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَهَلَّلُوا

فتضرم وجه الخليفة من الغيظ حتى أشفق عليه عنبسة،
فقطع الإنشاد، وجعل ينظر إليه فيراه يزفر زفرات ملتهبة
حائقة حتى إذا سكن غضبه بعض الشيء، قال في غيظ وأين
إلى الكوفة خالد القسري!! لعمري لأورته حتفه إذا سكت
عن هذا الكلب العقور!!

فقال عنبسة في تخابث: لقد علمتُ من كثيرين أن خالد
القسري صديق حميم للكميت، وأنه يؤاكله ويشاربه ويأخذ
هداياها!!

فصاح هشام: أو متشيع يلي أمر النسا ويحكم باسم أمير
المؤمنين!!

فتراجع عنبسة يقول: ليس كل ما يقال صحيحاً يا أمير
المؤمنين!! فأنا لا أستطيع أن أكشف عن سويداء خالد،
فأعرف ما تسكن من حبٍّ أو بغضٍ، ولكنني آخذ عليه أن
سمح للكميت بإذاعة هذه الأراجيف، فتناقلها الناس!!

فقال هشام في تضاييقٍ مريٍ: تأخذ عليه فقط، لا بد أن
أذيقه الحتوف مع صديقه الرنيم... ثم ضرب كفاً بكف،



وقال منفعلاً عجباً للناس!! ألم يتطوع شاعر مأجور ممن
تجزل إليه العطاء بمعارضة هذا النباح!!

فردّ عنبسة يقول: علمت يا أمير المؤمنين أن الكمية
معارض لا يغلب، فهو ذو ثقافة واسعة في العلوم
والأنساب!! وله لسان حاد يتناول به الصغير فيضخم
ويعظم، حتى إن الكثيرين يجتمعون في حلقات دروسه ليروا
قدرته على الجدل، ومعجزته في الإفصاح!! وإني لأعرف
أن الفرزدق على علو سنه وجلالة قدره، ذهب إليه الكمية
بالكوفة - وهو صبي ناشئ - فعرض عليه شعره، فأعجب به،
فاحتال الفرزدق وسأله أمام الناس: أيسرك يا كميّة أني أبوك
فردّ الغلام في استهزاء. والله ما يسرني أن تكون أبي، ولكن
يسرني أن تكون أُمي فتضاحك الحاضرون. فعصّ هشام
بأسنانه على شفتيه وسأل: أتعرض هذا النباح إلى الخوارج
أعداء علي! أم أكتفي برهطنا الأكرم من الأمويين!!

فقال عنبسة في جدّ: إن الشاعر كما أعرف صاحب رأي
مستقل وتفكير خاص فهو لا يندفع مع الشيعة في كراهية
بعض الصحابة، والتنديد بهم بل يستقل برأي ذاتي، فقد
سئل مرات عن أبي بكر وعمر، فأثنى عليهما ثناء مستطاباً!
لا كما يصنع رهطه الغالون!! والغريب أنه لم يتعرض



للخوارج في شيء بل إنه صديق حميم للكثير من شعرائهم،
فأنا أعلم أن الطرماح خليله وسميره!! يتخالطان ويتناحيان!
وقد سمع قائلًا يقول:

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخی عنان القصائد

فقال الكميت أي والله وعنان الخطابة والرواية!

فصاح هشام غريب لعمرى ما تقول! شيعي متعصب يمدح
أبا بكر وعمر، ويصادق أعداء أبي تراب من شعراء الخوارج!!

فقال عنبسة في دهاء ليست صداقة الكميت للخوارج
عجبة يا مولاي فهم والشيعية أعداؤنا جميعاً، وقد ألفت
قلوبهم تلك الخصومة الناعرة فتناسوا ما بينهم من أحقاد!!

فهزّ هشام رأسه، وقال في غيظ: سأكتب الآن إلى خالد
أن يأتيني مع الكميت بعد أن يخزيه أمام شيعته، فإذا قدما
عليّ فستعلم ما أنتقم به من كل وغد جريء!! ثم استأذن
عنبسة، فخرج وترك هشاماً تموج به شجونه موجاً مواراً فلا
يستقيم إلى هدوء.



كان خالد بن عبد الله القسري والي العراق جالساً في
قصر إمارته بالكوفة ذات صباح، فجاءه خطاب هشام بالقبض



على الكميت الأسدي شاعر الشيعة مع قطع لسانه أمام رواته ومؤيديه... ثم الحضور به سريعاً إلى دمشق، فقرأ الخطاب في حيرة، ودهش مأخوذ الأيدي، ماذا يصنع بصاحبه!! غير أنه - مع ذلك - أمير حازم يحرص على مستقبله، ويرى التهاون في مطلب الخليفة الطاغية جريمة فادحة تطيح به بين صباح ومساء، فأصدر أمره السريع باعتقال الشاعر، وزجّ به في أعماق السجون رداً من الزمن حتى ينبسط الوقت قليلاً أمامه للتفكير الحصيف!! ونظر الشاعر فوجد نفسه مكبلاً بالأصفاد، يتخبط في ظلام مطبق لا يُلوح في غياهبه شعاع من رجاء!! فتزلف إلى السجّان حتى أنفذ رسالة باكية إلى صديق أبان بن الوليد، وكان أميراً على واسط وهو من الحيلة والدهاء بحيث تنفرج له المضايق المتلاحمة عن طريق متسع ذي شعب وانحاء!! فحين وصلت الرسالة إليه أدرك محنة صديقه وتسربل ظلام الليل فعجل بالحضور مستخفياً إلى الكوفة، ثم طرق دار الكميت فوجد زوجته تذرف الدموع وقد أحاط بها اليأس فما تعرف سبيلاً للأمل في نجاة الكميت الزوج المنكود، فأخذ يرفه عنه بمختلف الأعاليل ثم قال في حزم بالغ: إن الكميت مهدد بأسوء المصير ولن ينقذه سواك!! فنظرت الزوجة مدهوشة! وصاحت كيف أستطيع إنقاذه وقد حالت دون ذلك الأسباب.



فقال إبان في دهاء: لا يحتاج الأمر منك إلى غير ثبات
القلب وشدة الإخلاص، فنظرت إليه كاللائمة وكأنها تقول:
وهل يشك الأمير في إخلاص زوجة لزوج ترى فيه معقد
الآمال ومناط الرجاء!! ونساقيه كؤوس المودة والولاء!!

فأدرك إبان ما يختلج في خاطرها من أفكار وعجل فقال:
تستطيعين أن تذهبي إليه بملاءتك السوداء في سجنه البهيم،
فإذا قدمت على السجّان تلطفي منه حتى يدخلك إليه،
وحيثُ تعرضين على الكميت أن يرتدي ملاءتك النسائية،
ويخرج بها أمام السجّان!! فإذا انفرجت أمامه الطريق ركب
راحلةً أعددتُها لذلك، ثم اتجه إلى مغاور الصحراء متنقلاً
بين القبائل في تستر واختفاء حتى يجيء دمشق، فيستشفع
إلى الخليفة بمسلمة بن عبد الملك وإني لآمل أن يتحقق
رجاؤه في مسلمة فيزول خوفه! وتعود إليه الدعة والاستقرار.

قالت الزوجة في تساؤل: وماذا أصنع حين يأخذني
السجّان إلى خالد!! وقد ساعدتُ على هروبه بحيلة نكراء!!
فهز إبان رأسه في استخفاف وقال: لن ينتقم من امرأة على
كل حال، فهو يحاذر أن يفعل، فتكون جريمته سبة الدهر
وفضيحة الأجيال!! ففكرت الزوجة ملياً ثم اطمأنت إلى
الموافقة ونهضت إلى ملابسها الفضفاضة وعجلت بارتدائها



وأخذت طريقها إلى السجن ومن ورائها إبان بما أعد من راحلة.. ثم مثلت الزوجة المخلصة دورها الدقيق كما رسمه إبان عن مهارة وإحكام!! حتى إذا خرج الشاعر من محبسه تلقفه صاحبه فأهداه الراحلة وتركه في مهب الأقدار تصنع به ما تريد!!

وطلع الصباح فاستدعى خالد أسيره، ففوجئ بامرأته دونه!! فأرغى على السجان وأزبد وتهدده بأسوء ضروب التنكيل.. ثم عمد إلى الزوجة فحاول أن ينتهرها على ما اقترفت من جريمة آثمة. ولكنه طوى الشفاء، على غيظٍ محرق، وأسلمه رأسه إلى تفكير طويل يتبدر ما عسى أن يجيب به أمير المؤمنين.



بلغ الكميت دمشق كما أشير عليه أن يتجه، فقصده مسلمة بن عبد الملك وكشف له النقاب عن سره، ورجاه أن يشفع له عند أخيه، ولكن الأمير صارحه في صدق مؤثر باستعصاء ذلك عليه، فهشام حقود لجوج يركب رأسه ولا ينظر في شفاعة أخ أو حبيب!! فاضطرب الشاعر وسأل عما عسى أن يأتيه فأطرق مسلمة قليلاً ثم قال: لقد مات



معاوية بن هشام منذ زمن قريب وجزع عليه أمير المؤمنين
جزعاً فاق كل حدّ حتى خفنا عليه العاقبة، فإذا كان الليل
فاضرب رواقك على قبره وسأبعث إليك ببقية ليكونوا معك
في الرواق فإذا دعا بك الخليفة تقدمت إليهم أن يربطوا
ثيابهم يثابك ويقولوا هذا لاجئ استجار بغير أبينا ونحن
أحق من أجاره!! وإذ ذاك لا يجد مفراً من الغفران.

أشرق الصباح فتطلع هشام من قصره كعادته إلى القبر
فوجد أشباحاً تلوح فقال ما هذا؟ فقالوا لعله مستجير بقبر
ولدك الحبيب! فبكى قليلاً ثم قال في لوعة عفوت عنه إلا أن
يكون الكميت! فإنه لا جوار لكلب نباح! فقيل إنه الكميت
يا أمير المؤمنين فصاح الخليفة غاضباً مشتتاً ليحضر أعنف
إحضار!! فلما دُعي إلى اللقاء ربط الصبيان ثيابهم بثيابه
وبكوا واستعبروا وصاحوا بأمر المؤمنين يا جداه يا جداه
هذا لاجئ استجار بقبر أبينا، وقد مات ومات حظه في الحياة
فاجعله هبةً له ولنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به، فتأثر هشام
لبكاء أحفاده، وتراءت له صورة فقيدته الأعز فبكى في أسى
مفرط حتى كاد أن يُغمى عليه، ثم قال بعد أن تماسك: ويلك
يا كميت من زين لك الغواية ودلاك في العماية! فقال الشاعر
في انكسار: الذي أخرج أبانا آدم من الجنة فنسي ولم نجد له
عزماً.



فقال له في تلدد حقوق أنت القائل:

فقل لبني أُمِّية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركمو أجيعا
بمرضى السياسة هاشمي يكون حيا لأمته ربيعا

فقال الكميت لا تثريب يا أمير المؤمنين فقد محوت
قولي الكاذب بقولي الصادق:

أورثته الحصان أم هشام حسبا ثاقبا ووجهاً نضيراً
وكساه أبو الخلائف مروا ن سني المكارم المأثورا
لم تجهّم له البطاح ولكن وجدتها له معاناً ودوراً

فتربع الخليفة جالساً ثم نظر إلى أحفاده فرحمهم في
موقفهم الجليل وأعلن رضاه الظاهري عن الشاعر فأطلقه
وفي صدره بلابل ثائرات!!

سار الشاعر إلى الكوفة وقد خدع بما شاهد من عفو
هشام!! ونسي أن الخليفة يكنّ له من الضغينة ما يهدده
بالكارث الشنيع، وقد نفعه استشفاعه بأحفاده فزحزح أجله
قليلاً ولكنه لم يطفئ نواغر دامية في قلب هشام تتألب عليه
في خلواته فيتحرق منها على مثل الجمر المشبوب!!

وقد شاء أن يتخلص نهائياً من حقوقه الساهدة وأضغانه
المشتعلة فعزل خالد القسري عن العراق، ودبر له مكيدة



أطاحت به على يد واليه الجديد يوسف بن عمر الثقفي!! إذ
بعث به من دمشق إلى إمارة الكوفة مزوداً بتعاليمه المنتقمة،
ومنفذاً أمره في استئصال شأفة خالد والكميت معاً، منتحلاً
لذلك شتى الأسباب دون تأخير..

وجاء يوسف فتتبع شيعة عليّ بما يستفزع من الشنائع
الرهيبة، فلمح الكميت بوارق شر يتهدهه! ولكن ثقته في
عفو هشام قد ثبتت قليلاً من قلقه الموزع وضلاله الحائر
ورأى أن يتزلف إلى الوالي الجديد فأخذ يمدحه بقصائد
يمليها الخوف وتدفع إليها الرغبة في السلامة والنجاة!!
ويوسف لغز مبهم يحاول الشاعر المتفرس أن يصل إلى حله
فلا يستطيع فالرجل جامد الملامح، أعجم النظرة لا تنطق
أساريه بما يكشف خواطره أو يبدي صفحة قلبه!!

وظل الشاعر بين الخوف والأمن، والأمل والرجاء
حتى وفد ذات صباح على الأمير، فأسمعه بعض مدائحه
فيه، وانتظر أن يجد ابتسامة مريحة أو يسمع كلمة
سارة!! ولكنه فوجئ بانقضاض بعض الحراس عليه
وتمزيق جسده بالحراش!! ويوسف ساكن هادئ كأن
الأمر لا يعنيه، وأصبح الناس يقولون لقد هجم الرعاع
من اليمامية على الشاعر فتكاً بالحراش وطعنًا بالرماح



لهجائه سيدهم في بعض ما أسلف، فنالوا حياته دون أن
يأمرهم بذلك يوسف!!

فیردّ عليهم العقلاء كيف يصدر ذلك في حضرة
يوسف بن عمر طاغية العراق إلا إذا أشار عليهم بما يريد،
ثم لماذا لا يؤخذ ذوي الجزيرة بما صنعوا من فحشاء!! وقد
شاهد عن عيان ورأي عن يقين! ويسأل قوم آخرون وهل
يجرؤ يوسف على قتل الكميت وقد عفا عنه أمير المؤمنين!!
فیردّ عليهم العقلاء ومَن أدراكم أن أمير المؤمنين قد
عفا عنه من قلبه وضرب صفحاً عن هاشمياته وقد سارت
في العرب مسير الريح! وأين الوالي الذي يستطيع دون إيعاز
قوي أن يطيح برجل، ضمن عفو الخلافة، وعاد من دمشق
بعد أن أسكن الثائرة وطفأ اللهب!!

ثم يصمت القوم في أسفٍ أليم.





طفيلي يلهو

أشرقت الشمس وضيئة زاهية، ونظر الوليد بن يزيد إلى
السماء فوجدها صافية رائعة لا تمر بها غيمة تؤذن بعارض!
فدعا رفاقه من ندماء الشراب، وأصدقاء الطرب والبهجة، وأمر
أن يسيروا جميعاً إلى منزلهم الأنيق في غوطة دمشق، حيث
يتجلى الربيع الناضر في أجمل زينته، يرف الشجر المياس
محملاً بأشهى الثمار، ويهب النسيم السكران منتشياً بسلافة
الزهور، وتترقرق الجداول شاكية مداعبات الهواء ومباغيات
الريح!! وقد صفت الأرائك مكسوة بالمخلم الناعم، ومطعمة
بفصوص الجواهر والياقوت!! وأخذ المطربون أماكنهم
الصادحة، ليعثوا هواتف الأشجان، ويشيروا كوامن الوجدان
بما ينشدون، ويلحنون، وإنهم لفي أنسهم الناعم، ولهوهم
الأنيس، وقد تحلق حرس الخلافة حول المجلس الحافل
يمنع شذاذ الأفاق من السابلة، وغوغاء المارة من الجائلين،



إذ قدم شيخ زري الهيئة مضطرب الخلقة، قذر الملبس،
وطلب أن يستأذن له على أمير المؤمنين.

قال صاحب الحرس: ثكلتك أمك يا أشعب، أمثلك في
هوان قدره، وقبح منظره، ورثاة ثوبة، يطمع أن يصل إلى
مجلس الخليفة، وقد حفل بكل زاهر الطلعة، رائع الرونق
من شباب أمية، وغطارفة مروان!

فتبسم أشعب في استخفاف وقال: علم الله ما كنت ذا رغبة
في رؤية الغوطة اليوم لولا أن أمير المؤمنين حفظه الله قد أرسل
من يدعوني إلى هذا المجلس في الصباح، ولولا طاعة الخليفة
ما تركت المنزل، وأنا كما ترى ظاهر الإعياء متضح السقام!!

فهزّ صاحب الحرس رأسه وقال في تخابث: أتريد أن
تخدعني عن تطفلك يا أشعب بزخرف من القول حتى آتي
أمير المؤمنين فأعلمه بمقدمك، وقد لا تكون في حسابه،
فيأذن متفضلاً بدخولك، لتصبح سخرية العابث، وضحكة
الهازيين!! أظننته عرساً حافلاً لسوقي حامل من أفناء دمشق،
ونسيت عظمة الخلافة، وجلال الوليد!

فقال أشعب في جدّ حازم: لقد صارحتك بالحقيقة،
وأعذرتك إذ أخبرتك، فإذا حاسبني أمير المؤمنين فعليك
الملامة والتثريب!



سكت صاحب الحرس كالمفكر أولاً... ثم ذهب بين
التصديق والتكذيب إلى مجلس الوليد، وقال في انحناءة
مهذبة. أشعب يطلب المثل يا أمير المؤمنين.

فتضحك القوم عابثين، ووقف شاب من الندماء ليقول
للخليفة: ناشدتك الله إلا صرفت عنا هذا الشره المبطان!!
فليس اليوم للسفلة المتبطلين!!

فضحك الوليد في استهتار، وأخذ كأساً مترعة فصبها مرة
واحدة في حلقة، وقال مخاطباً نديمه في استخفاف مفرط،
تعوده منه خلطاؤه:

. كلنا شره مبطان لا أشعب وحده، نعبد الطعام والشراب،
ونحسب لهما ألف حساب!!

فردّ نديم ينزلف: معاذ الله أن يكون أمير المؤمنين شرهاً
مبطاناً! وهو غصن باسق من دوحة مروان! ونبعة قوية من
أرومة أمية! وما في أجداده وآبائه إلا عف مترفع! لا يخضع
لشهوة بطن أو ينحدر إلى نهمة أمعاء.

فضحك الوليد وتمايل.. ثم نظر إلى صاحبه في استهزاء،
وبدأ حديثه كالساخر: ما هذا الذي تقول! أخرجت معي إلى
الغوطة للمرح والصراحة أم للتكلف والرياء!! لسنا الآن في
قصر الخلافة نستقبل الوفود ونقضي المراسيم! ولكننا في



خلوتنا المتحللة نرفع الهيبة، وتنطق بالصريح كما يجيء!!
 من قال إن آبائي من أمية قد عفوا عن الطعام والشراب ولدي
 من نوادرهم الأعاجيب! ثم التفت إلى جلسه الأيمن وقال
 في سخرية: أتدري لماذا يصنع الصائمون الكنافة في دمشق،
 لقد كان معاوية بن أبي سفيان لا يحتمل رمضان! فأخذ
 يبحث عن غذاءٍ دسم يلصق أحشائه فترة طويلة! فهداه بعض
 الزائرين من القسطنطينية إلى الكنافة. فصنعها مثقلة بالسمن
 واللوز والسكر! وتناولها عنه الناس في كل مكان، حتى
 اشتهر بها رمضان في ربوع الأقطار!!

فتبسم القوم في أدب، ولم ينطقوا بشيءٍ إجلالاً لمعاوية
 وللوليد!!

غير أن الخليفة يدور ببصره، فيرى الاحتشام والتحرج،
 فيصيح: ما لي أرى صمتاً متوحشاً كأننا في معتبرة لا في
 حديقة!! ألم تعجبكم هذه النادرة! سأروي لكم غيرها... ثم
 تناول كأساً ثانية وصبّها في جوفه، وأخذ يقول:

أقبل رجل إلى سليمان بن عبد الملك وهو يدابق ومعه
 سلتان ملئتاً ببيض وتين، فقال لرفقائه قشروا قشروا، وجعل
 يأكل بيضة بيضة وتينة تينة حتى فرغ من السلتين ثم أتوه
 بقصعة مليئة مخا بسكر، فانكبّ عليها حتى مرض ومات



بعد أسبوع صريع الطعام!! ونظر الخليفة إلى ندمائه فلم
يرَ من يضحك بل سمع قائلاً: يقول في أدب: رحم الله
سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين!!

فصاح الوليد تترحمون عليه أمامي! ولو بعدت قليلاً
لهزئتم به! تبّاً لكم من منافقين، ثم تناول كأساً ثالثة فشربها
دفعه واحدة، وقال: سأطيل احتشامكم، وأروي النادرة
الثالثة!!

خرج هشام بن عبد الملك المتنزه ذات يوم فرأى راهباً
يتعبد في بستان، فدخل علينا مفاجئاً، وأخذ الراهب يقدم
إليه من فاكهة الحديقة ما يختار عادة للخلفاء! وهشام
يأتي على كل شيء فما يدع! ثم قال للراهب: أتبيعني هذا
البستان؟ فسكت الراهب ولم يُجب! فقال هشام: ويحك
لِمَ لا تجيبني! فقال الراهب: وددت لو مات الناس جميعاً
غيرك يا أمير المؤمنين، فتعجب هشام وسأل: لماذا تودّ
ذلك؟ فأجاب الراهب في ملاطفة: كيلا يشاركك أحد في
هذه الثمار!!

ثم ضحك الوليد ضحكة عالية وتابع النظر إلى ندمائه
فوجدهم يبتسمون ولا يتكلمون ف جذب ثوب أحدهم وقال:
بحياتي إلا عَقَبْتُ على ما أقول.



فتبسم المجلس في لطفٍ وقال: علمت أن الحجاج قد
أكل أربعاً وثمانين لقمة في كل لقمة رغيف من خبز! وفي
كل رغيف ملء كفه من السمك الشهي!!

فضحك السامعون ساخرين: وأخذوا يتندرون على
الحجاج ويقذفونه بقوارص التهم ولواذع الشفائع!

فأطال الخليفة إليهم النظر وصاح: سحقاً لريائكم القبيح!
أحين تركنا بني أمية تضحكون وتتندرون!! ثم رفع رأسه
لصاحب حرسه وقد أطال وقوفه فلم يؤذن له منذ جاء -
وقال: أدعُ أشعب ولا تبطئ! فليس أحد أفضل من أحد، كلنا
شره مبطان!! مضت لحظات وقدم الطفيلي الشيخ مبتسماً،
يثب في سيره، ويميل بمنكبيه متظالماً، ليجذب إليه الأنظار،
ثم مثل بين يدي الخليفة في ارتعاش متكلف ليضحكه!

فأحضر كرسيّاً من الخشب وأجلسه عليه في وضع
متقابل كي يشهده الحاضرون!

وقال الوليد ساخراً، تحدث إلينا يا أشعب، فأنت راوية
اليوم، وليس لنا غير الاستماع!

فأخذ أشعب يتضاءل وينكمش في استكانة خادعة وقال
في ذلة: أعزك الله يا أمير المؤمنين، أنا جوعان سغبان ولا
يحسن حديث الخلفاء شيخ تتلوى أمعاؤه فما تستريح!!



فصاح الوليد سائلاً في عبث: وهبك لم تجدنا الآن!
فأين كنت تتناول الطعام! فردّ أشعب في بديهة سريعة: كيف
وقد رأيت بالأمس في منامي أنك ستجلس اليوم، ورؤياي
صادقة كرؤيا الأنبياء!!

فتضحك القوم في مرح، وقال الخليفة مستهتراً: رؤياك
كرؤيا الأنبياء يا أشعب، لو كان الأمر كذلك، ما تركت قراءة
القرآن في المساجد، وأخذت تتبع الملاهي ليستهزئ بك الناس!
فأطرق أشعب متصنعاً العبوس.. ثم رفع رأسه وقال:
معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أترك القرآن فأنا لا أزال أرتله
صباح مساء.

فالتفت الخليفة إلى ندمائه وقال: شهدتم عليه، سأمتحنه
الآن، فأرى مقدار ما يحفظ من السور والآيات.

ثم اتجه إلى أشعب وقال في جد: أي سورة تعجبك في
القرآن؟

فردّ أشعب متسرعاً: المائدة يا أمير المؤمنين، فتجاهل
الخليفة تعريض صاحبه وسأل وأي آية تختار؟ فردّ أشعب
دون إبطاء: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا!!

فضحك السامعون، وتابع الخليفة يسأل ثم ماذا من
الآيات يا أشعب؟ فقال: آتنا غذاءنا، فقال الوليد قل غيرها



فردّ أشعب: كلوا من طيبات ما رزقناكم، فتطلع إليه الخليفة في جدٍ وصاح: اختر غير آيات الطعام! فقال أشعب على الفور: ادخلوها بسلام آمين!!

فسأل الوليد أليس غيرها؟ فقال أشعب: وما هم منها بمخرجين، فنظر الخليفة إلى القوم وقال في ابتسام: حيرتني بديهة هذا الخبيث!

فقال مستمع أديب: إن أشعب قد راجع القرآن بعناية ليلتقط منه ما يريد: فأجابته الآن مُعدّة مهياة! وليست من باب الارتجال!

فضحك أشعب وقال: صدقت يا هذا، لأنني رأيت بالأمس في مقامي أنكم ستمتحنونني في القرآن فأخذت هذه الآيات! فضحك القوم مسرورين! ونظر الوليد إلى المتكلم فرآه ساكتاً لا ينطق ولا يضحك! فقال له: لستُ كفوءاً لحوار أشعب! هذا أمير المتطفلين!

فرفع الشيخ إصبعه بطلب الإذن في تخوفٍ مضحكٍ ثم قال: لست أمير المتطفلين يا مولاي هناك مئات غيري ممن تبؤوا إمارة التطفل عن جهاد عظيم!

فزجره الخليفة قائلاً: صه يا دجال! فما نعرف من القوم أميراً سواك.



فهزّ أشعب رأسه هزة مضحكة.. وقال في احتيال إن
التطفل لم ينشأ في لغة العرب إلا منتسباً إلى طفيل بن زلال
الكوفي! أأكون أميراً عليه! واسمه أولى بالتقديم! قولوا إذن
أمير الأشعبيين، فأكون الأمير!

فضحك الخليفة وقال لجلسائه: لحاه الله، لم يذهب بعقله
الشراب، هو يتحدث بمنطق سديد ثم اتجه إلى أشعب يسأل:
وما بلغ من تطفل صاحبك طفيل بن زلال؟

فترجع الشيخ في مجلسه دون أن يخلع خُفَّه الرثة! فأثار
عاصفة هازئة من الضحك ثم تصنع الوقار وقال متخذاً سمتَ
الخطيب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، استمعوا
عباد الله.

لقد كان طفيل بن زلال أعرابياً من بني هلال، وكان إذا
سمع أن قوماً لديهم دعوة أتاها فأكَل طعامهم دون استئذان،
وقد أوصى ابنه عبد الحميد في عِلِّيه التي مات بها، فقال
له يا بني إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب، وتخير
المجلس اللائق وإن كان العرس كثير الزحام، فمُرْ وانه
وامض ولا تنظر في عيون الناس، ليظنَّ أهل المرأة أنك من
أهل الرجل، ويظنَّ أهل الرجل أنك من أهل المرأة، وإذا كان



البواب غليظاً جافياً، فابدأ به مرة وانته في غير تعنيف ولا
إذلال!!

فتمايل القوم ضاحيكن، واستلقى الوليد على كرسيه من
الطرب، ثم قال في استهزاء: وهل طبقت أنت هذه الوصية يا
شيخ!

فهزَّ أشعب رأسه في تمايل وقال: إن الناس يا
أمير المؤمنين ماكرون خادعون، وقد فطنوا إلى ذلك فلم
يُعودوا يجهلون كل متطفل محترف! وإني لأقابلهم بالحيلة
والخداع لأبلغ منهم بعض ما أريد فصاح الوليد في ترنح
أرني بعض خداعك أيها المحتال؟

فوقف أشعب في مكانه وقال: أنا جائع يا مولاي!
والجائع لا يتقن الحديث.

فزجره الوليد جاداً ثم قال في استخفاف: هذا خداع
عملي يا شيخ! ونحن لا نريد أن نخدعنا نحن ولكن أرنا
كيف تخدع الناس!

فانكمش الشيخ في مكانه كالحذر الخائف وقال وهو يتصنع
الاضطراب والفرع والقوم يضحكون في عبث واستخفاف:

يا أمير المؤمنين - دعا رجل من أهل المدينة نفراً من
خلانه إلى مأدبة حيتان وبينما هم يأكلون إذ توكلت على الله



ودخلت فقال أحدهم هامساً - وقد سمعته بمعونة الله وتوفيقة - إن من شأن أشعب أن يعمد إلى أجلّ الطعام فاجعلوا كبار هذه الحيتان في آنية بعيدة ويأكل معنا الصغار ففعلوا، ثم قدمت فقالوا: ما رأيك في الحيتان؟ قلت والله إن لي عليها لغضباً شديداً وحنقاً لأن أبي رحمه الله مات في البحر وأكلته الحيتان! فقالوا دونك وكُل ما تشاء لتأخذ بثأر أبيك فجلست ومددت يدي إلى حوتٍ صغيرٍ منها، ووضعتَه في أذني، واتجهتُ بنظري إلى الآنية ذات الحيتان الكبيرة، وقلت في سرعة واهتمام: أتدرون ما يقول لي هذا الحوت! فقالوا في تعجبٍ: لا ندري شيئاً، قلتُ يقول في إخلاص إنه لم يحضر موت أبي ولم يدركه لأن سنه تصغر عن ذلك وقال لي عليك بتلك الكبار في زاوية البيت لأنها أدركت أباك فأكلته! فضحك القوم وعلموا أنني عرفت المكيدة وكشفتها عن طريق الاحتيال فضحك الوليد، وقال قصة طريفة دون جدال: لماذا لا تشتغل بالسياسية لتخادع الناس!

فردّ أشعب في أدبٍ: العفو يا أمير المؤمنين! إن السياسة فوق كل احتيال!

وجاء الخادم ومعه أطباق الفاكهة، فوضع أمام كل نديم طبقه الخاص، وحين سلّم إلى أشعب طبقه، أفرغه في ثوبه،



وستره بركبته، وقال في فزع: واذلّاه لقد أعطاني الطبق فارغاً
يا أمير المؤمنين، فردّ الوليد ضاحكاً: سلّ ركبتك يا أشعب
فقد أكلت الطبق وخذعتك! إعطه غيره يا غلام فهرع أشعب
ونزع الطبق متعجلاً وقال في استكانة ومضحكة: نفذت أمر
أمير المؤمنين.

ومضى القوم يأكلون ومنهم من يقذف بالقشرة في وجه
أشعب، فيفتح فمه في حذقٍ ليلتقط ما يقذف! وقد بلغت مهارته
في ذلك حدّاً رفّه عن الحاضرين، وأضحكهم سروراً ونشوة!
حتى قال الوليد لجلسائه: ويحكم: كنتم تريدون أن تمنعوا عنا
أشعب، ولو مُنِع عنا وجهه اليوم لخسرنا الشيء الكثير!

فوقف أشعب من مجلسه، ثم انحنى راكعاً، وهمّ
بالسجود! فقال الوليد: صه يا أحمق! ستدنس الغوطة إن
لمست أرضها الناضرة بجبهتك الشوهاء! حذار من السجود!
فتراجع أشعب في استكانة وقال: أمرك يا سيدي العظيم!

فصاح بعض الندماء: لا تتعدّ طورك أيها الشيخ! لم تردك
هنا عابداً ساجداً ولكن نريدك قصّاصاً مضحكاً! فهات نادرة
أخرى مما دبره احتيالك اللئيم.. ثم توجه بنظره إلى الوليد
وقال في أدب: إن أذن أمير المؤمنين، فهزّ الوليد رأسه وقال:
أذنت فهات يا شيخ، وأوجز الحديث.



فعاد أشعب إلى كرسیه الخشبي، وتربع عليه في حركة عابثة، وهمّ بالكلام فمسح شفتيه، ووضع يده على جبهته كمن يتذكر: ثم قال في تودة هادئة:

لقد أودعت يا أمير المؤمنين عندي امرأة من جاراتي ديناراً، فلما أصبح الصباح نظرت إليه فوجدته قد ولد درهماً، فذهبتُ إلى صاحبه وأعطيتهما الدينار والدرهم، وقلت في صدق: إن دينارك قد ولد لديّ! وطفله من حقل فخذني الدرهم، ففرحت فرحاً شديداً، وقالت: دعه عندك حتى يلد من جديد، وفي اليوم الثاني وجدتُ الدينار قد ولد الدرهم فبعثته إليها فقبلته في سرور، وفي اليوم الثالث مات الدينار في الوضع، فأعلمت صاحبه فصرخت وناحت وشكتُ أمري للناس فوقفوا معها! حتى تعجبتُ وقلت: أتصدق هذه المرأة أن الدينار يلد ولا تصدق أنه يموت! ثم نظر في مسكنة منكسرة وقال:

هذا بعض ما أكابد يا أمير المؤمنين!

فابتسم الوليد ضاحكاً وقال: أنت بحقٍ معذور يا أشعب مع هؤلاء المحتالين فصفق الشيخ في طربٍ وقال في لهجة مضحكة - وقد غَضِنَ ملامح وجهه فأثار العبث والاستهزاء: الحمد لله، لقد نصرني أمير المؤمنين.



ودنا موعد الغداء ففاحت رائحة الشواء حتى اختلطت
بأنفاس الزهر والياسمين، فنهض أشعب من مكانه مدهوشاً،
وقال في جدٍ متكلف: أين حبيبي العزيز؟!

فسأل الوليد في عبثٍ: وهل عرفت الحب أيها الشيخ
العجوز!

فأسرع يقول: علم الله ما لمحت مائدة على بُعْدٍ، إلّا
عشقت ما عليها دون أن أراه!

فزجره الخليفة قائلاً في جدٍ: أجب عن السؤال، وإلّا
قطعت رقبتك العجفاء! هل عرفت الحب؟ فجعل أشعب
يدخل في نفسه منكمشاً وقال متباكياً في لهجة مضحكة:
عرفته يا أمير المؤمنين فقد أحببت جارية بالمدينة ذات
جمال ودلال!

فتهكم بعض الندماء يقول: أحببتُها بوجهك هذا يا
أشعب؟ فقال الوليد: ولم؟ لكل ساقطة لاقطة، ثم توجه إلى
الشيخ يقول: وماذا أهديت إلى حبيبتك أيها العاشق العميد؟
فقال أشعب - وقد نظر نظرة اتسعت بها حدقتاه: كان
في أصبعي خاتم فطلبته، وقالت إنها ستذكرني به، فقلت لها



في صراحة واضحة: إذا كان الخاتم للذكرى فاذكري أنك
سألتنيه، ومنعتك إياه!

فقال الوليد في سخرية: الحب لا يعرف البخل أيها الشره
الضنين، فأنت إذن لم تحب، وسأحرملك من الغذاء! جزاء
كذبتك البلقاء!

فصرخ أشعب فزعاً: تحرمني من الغذاء! سأقتل نفسي يا
أمير المؤمنين!

فأخذ القوم يتضحكون متغامزين، وقال قائلهم في
سخرية: افعل بنفسك ما تشاء، فدمك هين على أمير المؤمنين!
فتراجع أشعب وقد تأمل الوجوه في تطلع، وقال لمن
يحدثه: لقد نسيت أيها الذكي - كيف أقتل نفسي، إني سأسير
معكم إلى الخوان وأكل وأخالف أمر الخليفة، فيحكم عليّ
بالقتل وألقى الله شعبان ريان! ونعم الممات!

فتبسم القوم.. ولكن الوليد يضحك قائلاً: لن تذهب
إلى الطعام وبيننا وبينه هذا النهر المتدفق، لأننا سنركب إليه
الزوارق ولا يحملك النوتي، وترانا على الشاطئ من بعيد
نأكل من الموائد الحافلة! وأنت متحسر حزين!!

فأظهر الشيخ مزيداً من الجد، وقال: لقد ذكرني أمير
المؤمنين بحادثة شبيهة لما يقول كابدت حشراتنا منذ حين!



فعبس الخليفة عبسة غاضبة، وقال معفّفاً: وهل خطر ذلك على ذهن قبلي أيها المجنون؟

فتضمضع أشعب ونظر في توسلٍ وقال: إنها حادثة شبيهة فقط، وليست بعينها، فقد رأيت ذات ليلة في طريقي عرساً من الأعراس، فدخلت إليه في لهفة، وعرفني صاحب العرس، فاحتال عليّ، وأحضر سلماً، وقال في لهجة مؤدبة: إلى الأعلى أيها السيد، فارتقيت إلى السطح، وظننت المدعويين سيصعدون، ولكنه حمل السلم بعد صعودي وحدي! وأحضر الطعام فجعل القوم يأكلون، وأنا أصرخ عليهم فوق السطح ولا من سميع!

ثم ابتسم الشيخ في دهاءٍ وقال: محال يا أمير المؤمنين، فذلك صعلوك حقير، أما أنت فأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين! لقد رأيت أجدادك جميعاً يا سيدي الكبير، وإنني لأستشفع إليك الآن بمقامهم الخطير.

فتراجع الخليفة وقد أخذته أريحته لما سمع من حديث ذويه فنظر إلى جلسائه يقول: لقد استشفع الشيخ بآبائي فماذا تقولون؟

قال نديم بتظرف: هبه كلب أهل الكهف يا أمير المؤمنين، يتبعهم إلى الجنة ولا يحجب عنه نعيم!



فصاح أشعب: نَعَمْ الكلب أشعب إذا كان صاحبه أمير
المؤمنين!

ونظر الجميع فرأوا الزوارق تدنو إلى شاطئهم النضير!
فخفوا مسرورين ومعهم مضحكهم الأنيس أشعب، وقد حلم
بمائدة حافلة وترقب في عجل تحقيق حلمه اللذيد.





مطربتان فانتتان

دخل مسلمة بن عبد الملك المسجد الأموي ملتفاً بعباءته
السوداء قبيل الفجر وجلس في ناحية منعزلة خلف المنبر
يسبح الله في همسٍ دون أن يشعر به أحد، وحمل إليه
الصمت المطبق في هدوء السحر حوار شيخ وقور يجلس في
المحراب مع تلميذ خاص به، فأرهِف أذنيه يستمع ما يدور
بين الرجلين، لأن اسم الخليفة يزيد بن عبد الملك تردّد في
الحوار مرات، وكان مسلمة يعلم عن شيخ المسجد الأموي
صدقاً في النظر، وسلامة في الرأي، وإحاطة بصيرة بجميع
ما يدور في دمشق من أنباء، لأن أتباعه المخلصين من رواد
المسجد يطلعونه على ما يقع بالمدينة تحت أعينهم كل يوم،
فيبدي فيه رأي الشريعة مؤيداً بالدليل ومدعماً بالبرهان،
وقد انقادت له الجماهير في دمشق انقياداً قلبياً جعلهم يرون
فيه إماماً هادياً لا ينطق عن الهوى، بل يقذف بالحق على
الباطل فيدمغه!! وقد تعجب مسلمة كيف يتحدث الشيخ عن



أمير المؤمنين قبيل الفجر في محرابه، والوقت وقت صلاة وتسبيح، إلا أنه جمع أنفاسه، وأخذ يستمع في حذر، فطرقت سمعه هذه الكلمات يقولها الشيخ في ضجرٍ وامتعاضٍ، لقد خفتُ أن يأخذ الله دمشق المسكينة بذنوب يزيد!! لقد خالف سنة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فاعتزل المسجد، فما يلم به حتى يوم الجمعة! وقد تطلع إليه الناس، وانتظروا قدومه، فلم يجدوا غير الإهمال والاستخفاف، وليته احتجب عن المسجد وتفرغ للقاء أصحاب المظالم في قصره، كما كان يفعل من سبقوه، بل أوصد الباب في وجوه الطارقين، ورجع الوافدون من شتى الأمصار حائرين خائبين، وكانوا يحملون عن أحوال بلادهم وولاتهم ما لا بد أن يبلغ سمع أمير المؤمنين، وكم تحملوا الليالي ذوات العدد في سفرٍ لاغبٍ يعانون لهيب الظهيرة ويرد الليل آملين أن يسطوا ظلاماتهم إلى خليفة رسول الله!! وولي أمير المؤمنين، ولكنهم - وأسفاه - يرجعون بصفقة المغبون نادمين!!

فقال التلميذ في ألم: لقد علمتُ يا سيدي الجليل أن يزيد قد اشترى منذ شهورٍ جارية مغنية سماها (حباة) وهي على ما يقال بارعة الغناء ساحرة الجمال، وقد ملكت عليه مشاعره، فعاقته عن شهود الجمعة بالمسجد، بل شغلته عن النظر في المظالم، وتأمل أمور المسلمين!



فردّ الشيخ في أسفٍ حزين: لقد ترامي إليّ هذا النبأ، ولم أشأ أن أصدقه حتى حدثني به حاجب أمير المؤمنين ليلة أمس، وقد ضاعف أسفي أن يزيد يسرف في الشراب، ويتمادي في العبث تمادياً يوشك أن يضيع به سطوة العرب، ويرتجف له كيان المسلمين، ولئن لم يرحم الله أمته بخليفة صالح كعمر بن عبدالعزيز، فيالعظم النكال، وبالسوء المصير.

عضّ مسلمة بن عبد الملك شفّتيه متأوهاً، فقد أحزنه أن يشيع أمر أخيه، فيتحدث به كل إنسان، كما أمضّ نفسه أن يكون بين رجال القصر من يذيعون الأسرار، فتتشر بين العامة دون خفاء، ورأى من الحزم أن يخفي نفسه فلا يشعر أحد بوجوده كيلا يقع مع الشيخ في حرج إذا تحدث الناس بأنه كان جالساً على خطوات منه خلف المنبر!! فأخرج منديله، وألقاه على وجهه، ثم التف في عباؤه، وقام يصلي الفجر خلف الإمام دون أن يفتن إليه حتى جاره الذي صافحه بعد الصلاة، ثم ذهب إلى بيته متنكراً، وفي نفسه شجون! وبين جنبه هواجس مشتجرات!!

ولم تكد تشرق الشمس على المدينة حتى اتجه إلى قصر الخلافة، وطلب مقابلة أخيه، فقال الحاجب في تلطف:



إن أمير المؤمنين في خلوته الهادئة، وقد رفض أن يقابل أحداً اليوم، ونبه على ذلك!! فماذا أصنع!!؟

فأطرق مسلمة ملياً، ثم أحضر ورقة صغيرة، وخطَّ بها رجاءه الخاص في سرعة المقابلة لأمر ذي بال، وقام الحاجب بإنفاذها دون إبطاء!

كان الخليفة يثق في أخيه تمام الوثوق، فقد علم من بسالته في الفتوح وبلائه في الجهاد ما قربته من نفسه، وأدناه إلى قلبه، كما أنه لا يخاف منه منازعته في الحكم، ومنافسته في السلطان، لأن أم مسلمة غير عربية، وقد شاء أمير المؤمنين عبد الملك ألا يلي الأمر من أولاده غير العربي الصريح!! وأخذ الخليفة يتساءل بينه وبين نفسه عما دفع أخاه إلى اللقاء العاجل، دون تريث، أجهاته الأنباء عن ثورة شبت في بعض الأصقاع، ورأى من الحكمة أن يسارع بإخمادها، قبل التمادي والاستفحال! إن الخواطر لتترادف عليه في خلوته اللذيذة مع صاحبتة (حبابة) وإنها لترى في قسمات وجهه، واختلاف ملامحه ما يدفعها إلى سؤال أمير المؤمنين عن فحوى الرسالة! فتعلم أن مسلمة أخاه يريد المقابلة العاجلة، لأمرٍ جليل! فتبسمت إلى أمير المؤمنين في (دلال) وتقول متضحكة: لا بأس يا مولاي فيومنا طويل مديد!



ويتقدم الخليفة إلى ردهة الاستقبال، فيسلم على أخيه
في أدب، ويجلس إلى جواره منتظراً ما عسى أن يبدأ به
الحديث...

فقال مسلمة في صراحة: لماذا يتخلف أمير المؤمنين
من أداء الجمعة في المسجد الأموي مغتيراً ما سار عليه آباؤه
وأجداداه من الخلفاء!

فدهش يزيد لسؤال لم يكن يتوقعه! ولكنه أظهر الثبات،
ولجأ إلى الحيلة فقال: إن العامة من الرعية يرهقوننا بالتزاحم
والتهافت، حتى نملّ ونسأم، وأنا أتحاشى لقاءهم فأصلي في
القصر بعيداً عن الغوغاء!!

فردّ مسلم: وأي جلال يتم لأمر المؤمنين إذا أصبح فرداً
عادياً، لا يتطلع إليه أمل ولا يزدحم في طريقه أفواج!؟

فسكت يزيد كالحائر: ووعده بصلاة الجمعة المقبلة،
ليجري على سنن الآباء، وقد ظن أن الحديث سيذهب في
غير هذا الطريق! ولكن مسلمة فاجأه بقوله:

لقد أوصد أمير المؤمنين أبواب قصره أمام الناس،
فأصبح المسلمون يقدون من العراق ومصر والمدينة والهند،
ثم يرجعون بآمالهم كما جاؤوا، وكأنه ليس في دمشق خليفة
يقابل الرعية، ويحكم بين الناس!



فتململ يزيد كالمتضايق، وقال في ضجرٍ: لقد كرهتُ
نفسي مقابلة الوافدين، وطلبت من صاحب الحراسة أن
يجمع مختلف الشكايات، ثم يعرضها عليّ دون حاجة إلى
مشاهدة الرعاع!!

فتطلع مسلمة في حزمٍ إلى أخيه ثم قال... وماذا يقول أمير
المؤمنين في حديث الرعية، وقد أذاعوا في كل مكان أنه ترك
أمر الدولة وتفرغ لجارية مغنية، يساقها كؤوس الصبابة وتسمعه
أعذب الأصوات، حتى ليس له مأرب في غير النساء والغناء!!
فرد الخليفة في خجلٍ حائرٍ: هذا أمر لا يعرفه غير حراس القصر
وخدمه، وألسنتهم مقيدة مكبلة! فكيف يشيع ويذيع!

فتعجل مسلمة يقول، وقد ارتفع صوته قليلاً: لقد سمعت
ذلك بأذني في المسجد الأموي فجر هذا اليوم، وكنت أؤدي
الصلاة متنكراً، ولم أصدق القوم بادئ ذي بدء، ولكنني
تحريت فعرفت أنك - سامحك الله - تحتجب عن الوفود،
وتنقطع في خلواتك عن الطراق!!

فردَّ يزيد في اضطرابٍ: كل ذلك قد كان!! ثم تقطعت
الكلمات على لسانه فتلعثم مرتبكاً، وعأوده بعض التماسك،
فقال في خفوتٍ: وأنا أمام هذه الغانية الفاتنة حائر خائر لا
أستطيع أن أفارقها لحظات!



فقال مسلمة في دهشة! وَمَنْ مِنْ أعدائك قد قذف بها
إليك ليلهيك عن أمرك فيتزعزع مكانك، وتسلفك الأفواه
الشامطة بقوارصها الحداد!

فأسرع يزيد يقول في ضجر: إن سعدة زوجتي قد أهدتها
إليّ وما أظن أنها من الأعداء!

فنظر مسلمة نظرة ذاهلة، وقال في تحير: لقد حرثُ والله
في أمور النساء! زوجة أمير المؤمنين تتنازل عن مسرتها به،
فتهديه جارية لعوباً، تحتل مكانها من قلبه، وتعصف بكيانه
الرسمي كخليفة المسلمين! فيصبح مع جاريته مضغة الأفواه،
وحديث السوق والخواص!

فقال يزيد في إطراقٍ مؤسفٍ: ذلك ما كان، وسأدعو
سعدة إليك لتعترف بما أسلفت إليّ من هبات! ثم صفق
بيديه في ضيق، فبادر خادمه بالحضور، فطلب أن يدعو
زوجته إلى لقائه، على أن يعلمها بوجود مسلمة، لتتأهب إلى
اللقاء!

كانت سعدة بنت عبد الله تعرف مكانة مسلمة في قصر
الخلافة، ومنزلته من أمير المؤمنين، فارتدت حلتها المحتشمة،
وأسرعت بالحضور لتجد يزيد زوجها مطرق الرأس، ساهم
الوجه، ومسلمة كالنمر الغضوب، يدور بعينه في الحجرة،



ثم يسلم عليها في حزمٍ حين تقبل على مجلسه! ولا يترك الفرصة لأخيه بل يقول: علمت أن زوجة أمير المؤمنين قد هدمت سعادتها بيديها حين أهدت إلى يزيد (حبابة) فاحتلت مكانتها من قلبه وشغلته عن الرعية والسلطان!! فتأوهت سعدة تأويهة حارة، ولم تجب! ونظر مسلمة فوجد دمعة حائرة تلمع في عينيها السوداء، ثم تسيل على خدها ناطقة بالشجن الذائب والألم المرير، فقال مسلمة في إصرارٍ: لا أحب أن أسأل فتجيب الدموع، وإنما أريد كلاماً بكلام!!

فأخرجت سعدة منديلها الحريري المطرز، ومسحت مسيل العبرة، ثم قالت في جهشة حائرة: لقد وجدته يا عماه يلهج بذكرها صباح مساء!! ويتحدث عنها كما يتحدث عن أشهى الأمانى وأعذب الأحلام! فقلت في نفسي: إن البعيد حبيب مرغوب، ولئن عاشرها معاشرة الخليط المجاور، لتزولن بهجتها من عينيه، فدعوئها من المدينة على عجل، حين ارتقى ذروة الخلافة، وأهديتها إليه بهذه المناسبة، وانتظرت، فوجدت القرب لا يمحو حباً يشتعل، بل يوقد اللهب ولا تمر الأيام على غير التماذي واللجاج!

فهزَّ مسلمة رأسه ثم قال: وأين رآها يزيد حتى أخذ يلهج بذكرها كل صباح ومساء!! فتنهدت سعدة تنهيدة حارة،



وقالت - وقلبها ينفطر - لقد حضر إلى المدينة ليصبحني من بيت والدي حين زففت إليه في عهد أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وقد أُقيم لذلك عرسٌ جافلٌ تتحدث به الأحقاب، وغنّت حباة إذ ذاك، وراها أمير المؤمنين فجئ بها صباة، وحدثني عنها بشغف واله حتى في الساعة الأولى من لقائنا في المدينة! وما زال على توالي الأيام يهذي بها، وكأنه يطلب مستقراً لقلقه الثائر بالحديث عنها فلما رأيت ما يعتريه من الوجد، جازفت بشرائها، وقدمتها هدية حبيبة إليه، آملة أن يروي من لقاءها ظمأه حتى ينقع فيعاف، فمرت به الأيام - والهفتاه - دون ارتواء..

ثم سكت فجأة، فنظر يزيد لأخيه في تطلع، وقال: وهذا والله ما كان دون تزيد وادعاء!! وشاهد مسلمة ما يرتسم من ملامح حزينة على وجه سعدة، فطلب إليها أن تذهب فتستريح!! خلا الأمير إلى الخليفة.. وقال له في حزم صريح: أنت لست ملكاً لنفسك يا يزيد، بل أنت ملكٌ للدولة التي تملك، والأسرة التي فوضت إليك رئاستها، ولئن تمادى بك الشأن على ما أرى لتزلزلن بعرشك القوائم الثابتة وليتطلعن إلى مكانك من يرى نفسه أولى منك بالسلطان! وأنت لا تجهل ما يتهددنا من الثوائر بالكوفة وخراسان، وإن شائعة تشيع في



الأمصار عن احتجاجك عن المسجد يوم الجمعة، وانقطاعك
إلى قينة متهتكة، لكافية وحدها أن تخرج حولك الصدور،
وترسل السيوف من الأغماد...

قال يزيد في حسرة المرتبك اللهيف: وماذا أصنع يا أخي!
وأنا لا أستطيع السلوان وقد حاولته مرات فبؤت بالخذلان!

فصاح مسلمة كمن يتعجب لأمر مشين!! يا سبحان
الله! ثم كتم غيظه، وقال: كُنْ رجلاً جديراً بالملك يا أمير
المومنين، وابدأ بأمرك فاذهب إلى المسجد من الغد، وانقطع
عن صاحبتك فلا تخلو إليها غير ساعة أو ساعتين في اليوم،
إذا ضعفت: ثم خذ نفسك بالحزم والتماسك، فإذا مرّت
الأيام على تغاضيك وتصبرك، واستحال التطبع إلى طبع،
فتذوق برد السلوان.

قال يزيد في حيرة: سأحاول كل شيء وليتني أستطيع.



انصرف مسلمة من القصر، وخلا يزيد إلى نفسه فلم
يتصل بأحد، ولم يسرع إلى (حجابه) كما توقعت أن يجيء،
فأدركت بفطنتها البصيفة أن الجلسة كانت تدور حولها، وأن



استدعاء سعدة على عجل ورجوعها بعد فترة ما كان لشأن من شؤون الملك، ولكنه لأمر القصر وحده، وماذا في القصر من شؤون غير أمرها مع يزيد!! فأغضت على غيظ مبرح، واختلج في صدرها الهواجس ما شغل بالها شغلاً شديداً، ولم تشأ أن تتراعى على قدمي سيدها متذللة، فتريق كبرياء الجمال، وتهدر جلال الفتنة! بل أمسكت على ما بها من الأشجان، ومضى اليوم ولم ترَ وجه الخليفة ثم أصبح صباح الجمعة، فرأت من اصطفاف الحرس، وتهيئة الجند ما علمت به ذهاب الخليفة إلى المسجد الأموي! فاستحال شكها إلى يقين أكيد، وثبت لديها أن النصيحة للعاقلة وُجِهَتْ إليه بالإقلاع عن اللهو، والإنصراف إلى المهام، فاكتأبت نفسها اكتئاباً أذاب قلبها المصهور، وفي لحظة من لحظات ضعفها اليأس تركت ثباتها المتكبر وأخذت عودها، وتقدمت إلى حجرة الخليفة وقد تهيأ للخروج بموكب الجمعة إلى المسجد، فغنت في نغم حزين وترجيع شجي:

ألا تلمه اليوم أن يتلبدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلدا

فاضطرب يزيد إذ سمع الصوت الساحر، ونظر فرأى وجه الغانية العاتبة جذاباً يستميل إليه كل ناظر! ولمح في محياها الغاضب ثورة زادت سحره فوشته بظلال فاتنة من



الروعة والحسن! وأخذ ترجيعها الأسر بمجامع قلبه، فترنح كالمتخاذل وثبت في مكانه لا يريم، ثم صاح في غضب: صدقت يا حباة قبح الله لائمي فيك! يا غلام، مُرْ مسلمة أخي فليصل بالناس، ثم نهض إلى معبودته فأخذها بين أحضانه وتقابلت دموعهما في شغفٍ لهيف! ووصل النبأ إلى مسلمة، فتوجه كئيباً محزوناً إلى المسجد، ورجع بعد الصلاة حائراً قلقاً يتململ من الضيق! ولم يستطع البقاء في بيته فحملته قدماءه ثانية إلى قصر الخلافة فأغفل لقاء يزيد! إذ لم يجد فائدة عملية في محادثته، وطلب الإذن على سعدة، فأخذت حشمتها الرزينة، وتوجهت إليه في أدبٍ مهذبٍ فقال في ابتسام: لقد ضاعت النصيحة سدىً يا أختاه، وضل صوابي في أمر يزيد، إذ تقول عليه الناس بما لا أطيق! وَلَا كَثُ أَحَادِيثُهُ الْأَفْوَاهُ..

فقلت سعدة في غيظ: لقد توقعتُ ذلك يا سيدي، فهيهات أن يلتفت أخوك إلى واجب أو يعتصم برشاد! فأطرق مسلمة ثم قال: وماذا نصنع الآن؟ ليست المسألة من شأن أخي وحده ولكنها من شؤون الناس!

فنظرت سعدة كالحائرة ثم قالت: لقد فكرتُ في المأساة ليالي طويلة، حتى جافاني النوم فكنت أصل المساء بالصباح على غير رقاد، ثم اعتزمت أمراً وسأنفذه لأنظر ما يكون!



فرّفع مسلمة رأسه مهتماً وقال في حزم: أبيني ما عزمت
عليه لتبادل المشورة فيسهل الإنقاذ! فردت سعدة في انفعال:
لا أكتّم عنك أني جد ناقمة على (حبابة) ولا بد من أزعاجها
في مشاعرها لتذوق بعض ما أكابد من ويلات! وسواء
رفضت يا سيد أم قبلت، فسأبعث إلى المدينة لأشتري سلامة
القس سيدة الغناء هناك، ولها جمال ودلال! ثم أهديها إلى
يزيد فتأخذ من قلبه بعض ما تشغله حبابة من فراغ كبير!

فابتسم مسلمة لما أدرك من كيد النساء، وقال في هدوء:
ولكنك تطفئين النار بنار مماثلة، كمن يداوي شارب الخمر
بالخمر! وأنا أريد أن أطفئ النار بماء بارد فيحيلها إلى
رماد تذروه الريح!

فردت سعدة في أسف: لن نجد السبيل إلى الماء، وقد
حاولته فتعذر...

قال مسلمة: لست موافقاً على ما تقولين فابحثي عن
سلاح جديد.

فصاحت الزوجة في غضبٍ مكتوم: أصارحك أني بعثت
فعلاً بمن يشتري سلامة من المدينة ويأتي بها إلى قصر أمير
المؤمنين، وقد أفهمت والي المدينة: أن هذه رغبة يزيد نفسه،
ولا شك أنه سيبادر إلى التنفيذ!



فدق مسلمة كفاً بكف، ثم قال في تساؤل: ومن أدراك أن سلامة هذه تفوق حباة في روعة الغناء وسحر الجمال؟.

فأجابت سعدة: لقد علمت أنها فتنت جميع الناس بالمدينة، على كثرة من بها من ذوات الصباحة والغناء - حتى أن الشيخ الوقور عبدالرحمن بن أبي عمار المشهور بالقسّ لورعه ونسكه قد ترك تسبيحه وهام في محاسنها الفاتنة، فنظم أرق الغزل، وأبدع الأبيات!! ثم سكنت لحظة واستطردت تقول: كما علمت أن سلامة أديبة شاعرة تعرف أخبار العرب، وتنظم سواحر القول، وتحفظ طرائف التاريخ وتلم بالأنساب، فإذا حدثت أمير المؤمنين وشاهد من حصافتها وعلم ما شاهد! فستشغله كثيراً عن صاحبه الجاهلة، فتعرف لوعة الغيرة وثورة الأشجان.

قال مسلمة في عجب: لقد بالغت يا سعدة في أمر سلامة كما أظن، فلم أرَ من النساء من تخصصت في الشعر والأنساب والتاريخ!! ماذا بقي إذن أمامها غير الفقه وتفسير القرآن والحديث!

فأجابت سعدة متعجلة!! نسيْتُ أن أقول إنها أَلمت الإماماً جدياً بالفقه والحديث! ففقهه مسلمة ساخرأً



وقال: أظنك تعلمين أن غناء الجارية وفقه القرآن لا
يجتمعان!!

فردت سعدة في تأكيد: إن عثمان بن حيان والي
المدينة قد اعتزم مرة أن يطهرها من طوائف المغنين
والمغنيات! فاحتال ابن عقيق حتى جمعه بسلامة،
وخاض معها في شجون من الفقه والسيرة والحديث
فبهرته بفهمها الدقيق وقال: لن أخرج من المدينة عالمة
فقهية!! فقال ابن عقيق منهزماً رضاه عنها: «إذن فترك
الباقيات كيلا يقول الناس إن الوالي أحب سلامة القس»!!
فبادر بالإذعان وترك الجميع، فأطرق مسلمة قليلاً ثم قال
في غضب: أجهلك ذلك كله عن المدينة يا ابنة عبد الله مع
نزوح الدار؟

ف قالت سعدة: ولم لا يأتني كل شيء عن المدينة وبها
أهلي، وفي ملاعبها البهجة ترعرع صباي وتنسمت أريج
الحياة!!

فتأوه مسلمة تأوهاً يدلُّ على همِّه المتماوج! وقال في
أسفٍ مبرح: لقد عالجت المسألة من زاوية الغيرة وحسدها
يا سعدة! ولعل الله يوفقني إلى علاجها من طريقها الصحيح
فأستأصل الخطر على أمير المؤمنين!



وشهد قصر الخلافة بعد أيام مطربتين بارعتين تجلسان في ردهته الفسيحة إحداهما عن يمين يزيد والأخرى عن يساره!! وكانت حباية أجمل وجهاً وأبهى طلعة، وكانت سلامة أشهى حديثاً وأوسع معرفة وأخف سحراً! وكأن اجتماعهما معاً قد كمل نقصاً كبيراً كان يزيد يلتمس تمامه حتى عثر عليه!! فزاد انصرافه إلى صاحبتيه، وأنس بهما أنساً فتح أمامه مباحج الأمل ومهد دونه طرق النشوة والإمتاع، وانتظرت سعدة أن تشب نيران الغيرة بين الجاريتين المتنافستين على قلب أمير المؤمنين، فلم يصدق ظنها فيما توقعته!! فقد كانت حباية تجد من أنس يزيد ما أنساها موازة المنافسة والتزاحم! وكانت سلامة تعرف أنها طارئة مقتحمة، فأفسحت صدرها وأغضت عما تندب به صاحبته من تعريض يصل حيناً ما إلى تصريح بغيض! وكأنها علمت ما يضمّر يزيد لحباية من هوى صادق فلم تشأ أن تكدر الصفو بنزاع أو خصام!! ورأت حباية حلم صاحبته وسعة صدرها وجمال صفحها، فأنست إليها بعد نفار، واطمأنت إلى زمالتها المحتومة!! ولا سيما وهي تعرف أن في نزاعهما ما يخرج صدر أمير المؤمنين، وذلك صعب كريحه! ومرت



الليالي سريعة وكلتاها تأخذ من أسباب الترف ووسائل
 البهجة بأشهى نصيب وأوفاه، حتى شغلنا يزيد عن كل
 شيء، فأصبح منهما في سكر لا يفيق وكأن القدر أراد أن
 يضع حداً لهذا العبث المستطيل، فقد امتد به التهور امتداداً
 أخرج الأقارب وأقر عيون الشامتين! فوقعت الكارثة الداهية
 إذ جلست حباة تأكل عنقوداً من العنب فشرقت بحبة
 كبيرة كانت بها منيتها العاجلة!! ونظر الخليفة فإذا كنزه
 الثمين يفلت بغتة من يديه، فطار صوابه، وأبدى من الهلع
 ما جاوز كل حد! حتى أمر بعدم دفنها! وظلت في قصر
 الخلافة مسجاة على سرير الموت ثلاثة أيام!! وصاح ندماؤه
 في أسف: «لقد صارت جيفة بين يديك يا أمير المؤمنين»
 فأذن بدفنها والزفرات تتأجج في صدره وعاش بعدها أياماً
 معدودات ثم قسا عليه الحزن، فأسلم أنفاسه متحسراً لهيفاً
 وفارق الحياة.

أما سلامة فقد قدر لها أن تبكيه بدموعها الساخنة
 كما قدر عليه أن يبكي صاحبته الراحلة!! والدنيا غرائب
 ومفاجآت!!

أَكُولُ نَهْمَ



كان العباس بن الوليد بن عبد الملك يتوجه إلى قصر الخلافة لمقابلة شقيقه يزيد بن الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين فرأى بباب القصر رجلاً أسمر عملاقاً ذا رأس ضخّم، ومنكب عريض، وإن لحمه ليتكتل على جسمه، فتخيل حين تراه أنه قطعة هائلة من الجبل تجري فيها الروح وتدب بكيانها الحياة..

فسأل في خشية عن هذا الأسمر المخيف فقيل إنه فارس الصحراء هلال ابن أسمر فقال العباس وماذا قدم به إلى أمير المؤمنين؟ فقال صاحب الحرس لقد علم الخليفة بغرائب المدهشة فأحب أن يراه وكتب إلى عامله بالمدينة فبعث به إلى دمشق ليحقق مطلب أمير المؤمنين...

فسكت العباس ولم يتكلم ثم تقدم في صمتٍ حتى أخذ مجلسه - دون استئذان - في جوار أخيه، وابتدأ يقول في تبرم



ظاهر: لقد كنت يا يزيد تعيب على سلفك الوليد بن يزيد انقطاعه عن شؤون الخلافة وانصرافه عن المظالم إلى جماعة من ذوي البطالة واللهم يشربون الخمر وينشدون الشعر، فكيف تنصرف أنت إلى ما انصرف إليه الوليد، وتبعث إلى المدينة متصيداً شذاذ الآفاق، وصعاليك البداة لتقضي معهم يومك الطويل دون نظر إلى ما يقع على كاهلك من أثقال وصعاب!

فابتسم يزيد بن الوليد في دهاءٍ وقال يستعطف أخاه: أراك لا تزال على دأبك في ازدرائي وتهجينني! وإني لأتحمل منك جميع ما تقول.. وقد ذهب مصرع الوليد بذكره ولكنك دائماً تعيرني به وكأنني ارتكبت حدثاً هائلاً حين أعلنت الثورة عليه، وسعيت في مهلك مُستهترٍ خليع.

فقال العباس في غضبٍ: لن أغتفر لك هذا مهما اغتفره الناس، فقد فتحت بثورتك الظالمة باب المروق والعصيان في بني مروان، ولست آمن من ينتفض عليك في لحظة من اللحظات، فيجمع إلى خلعتك الكتائب والجيوش! وإذ ذاك تشرب من كأس أرغمت على احتسائها سواك.

فقال يزيد ملاطفاً: رفقتك يا أخاه فأنا أعلم أنك بايعتني مكرهاً غير طائع، ولولا ما اضطررت إليه الجمع من مبايعتي



لتفرقت الكلمة وتحزّب الناس، وأنا أناشدك الله والرحم أن
تعفو عما سلف، فقد كفى ما كان...

فأطرق العباس! إطراقة العباس الحزين، ثم قال في حزم:
لقد اضطررتُ أمام الناس أن أتناسى جريرتك الشائنة..
ولكنني مضطر إلى نصيحتك بأن تقلع عن ذوي البطالة
واللهو، وتنظر في أعمال الخلافة ومصاعب الدولة، ليطمئن
إلى عهدك العرب والمسلمون..

فقال يزيد في ابتسام: إن عين الغضب نائمة يا عباس! علم
الله أنني أصل الليل بالنهار في استطلاع الشؤون، وتصريف
الأمر، حتى عرف العرب عني كلّ محمّدة تمدح، ومضى
مثلهم الشارد يقول: الناقص والأشج أعدلا بني مروان...

فتأوه العباس تأويهة متبرمة وقال: خدعتك الألفاظ
يا يزيد.. ولقد كان من قبلك من الخلفاء يمدحون فلا
ينخدعون، بل إن معاوية بن أبي سفيان كان يسمع الثناء
فيستشف من خلاله قوارص الهجاء، ثم يميل إلى الإغضاء..
وأنت فيما أرى يغرك المديح الزائف والثناء الخداع.. يا
يزيد.. لست أغشك ولكن أنصحك.. وإني أخوك..

فقال يزيد في سهوم: أتذكر لي شيئاً أغضبك مني اليوم
لنضعه على بساط النقاش!!



فرفع العباس رأسه وقال: هذا الصعلوك الذي بعثت إليه،
لتنصرف به عن شؤون الخلافة، فيسمعك القصص وينشدك
الأشعار..! وكأنك صاحب رواية وأخبار لا مصرف دولة
وأرواح...

فنظر الخليفة إلى أخيه - وهو يحاول أن يكتم ما أثار
حديثه في نفسه من امتعاض - ثم قال في أدب ودود: إن
الرجل الذي تعنيه فارس بطل من فرسان الصحراء، وقد نقل
أمير المدينة إليّ عنه من غرائب القوة وعجائب البسالة ما
أحببت به أن أراه، وأنا لا أصاحب الخائنين والخلعاء أو
أستطيب الكؤوس المترعة من الشراب أو استقدم المحصنات
والمنتهكات كما كان يفعل الوليد!! فماذا تقول في خليفة
يعلم عن أحد رعاياه ضرراً من الفتوة والبطولة فيستدعيه،
ويعرف له حق التضحية والاستبسال، فتراجع العباس متأثراً..
ثم قال لئن كان ما تقول من أمر الرجل فإن أحب أن أستطلع
أنباءه معك!! فأرى أي خارقة نادرة يأتي بها هذا المصارع
العملاق..

فتهلل وجه الخليفة في بشر ثم صفق بيده، وأذن لهلال
في الدخول لساعته، ومثّل الفارس بين يديه في ثباتٍ
واعتماد...



فقال يزيد في تخايب.. ما اندفاعك إلى الشر يا هلال،
فقد أثرت النفوس وأضرمت الأحقاد، فابتسم العملاق
الضحيم، فظهرت أسنانه متراصة حادة كأنها تشي بالنهش
والافتراس، وقال في صوت أجش: أي شر تعني يا أمير
المؤمنين.

فقال يزيد مسرعاً، لقد نقل إليّ أمير المدينة أنك هجمت
على العبد الرومي سحيم ووضعت رأسه بين أبهاميك فسقط
على الأرض مغشياً عليه في ذهول..

فنظر هلال نظرة فاحصة، وقال: أولم يسرد عليك
الأمير قصة سحيم بالتفصيل، علم الله أنني كنت راغباً عن
الصراع.. ولكن الوالي قد اضطرني إليه، فأكرهت على
المبارزة وانتقمت للعرب من هذا الجبار.. فتبسم العباس ابن
الوليد، وقال لهلال: سألك أمير المؤمنين أن تذكر كل شيء
بالتفصيل، فكيف تميل إلى الإجمال.. كيف رأيت سحيماً
ونازلته بمشهد من الناس!!

فقال هلال في اعتداد: لقد قدمت المدينة ذات مساء فلم
أزل أضع عن إبلي وعليها أحمال التجار حتى أخذ بيدي،
وقيل لي: أجب الأمير، فقلت لهم ويلكم إبلي وأحمالي،
ف قيل لا بأس على إبلك وأحمالك، وانطَلَقَ بي حتى ذهبت



فسلمت، ثم قلت للوالي: جعلت فداءك إبلي وأمانتي، فقال نحن ضامنون لها حتى نؤديها إليك، قلت: فما حاجة الأمير إليّ، فقال: رأيت هذا الرجل الأصفر، وأشار إلى إنسان جواره، فما رأيت يا أمير المؤمنين قط أشد خلقاً منه ولا أغلظ عنقاً، وما أردى أطوله أكثر أم عرضه.. ثم تابع الوالي يقول إن هذا العبد ما ترك بالمدينة عربياً يصارع إلا صرعه، وقد بلغني عنك قوة، فأردت أن يجري الله صرع هذا العبد على يديك فتدرك ما عنده من أوتار العرب، فقلت للأمير إني تعبٌ نصيبٌ جائع، فإن رأى الأمير أن يدعني اليوم حتى أضع عن إبلي وأؤدي أمانتي وأريح يومي هذا ثم أجيئه مع الغد فليفعل، فقال لأحد أعوانه: انطلقوا معه فأعينوه، ففعلوا جميع ما أمرهم به وبتّ ليلتي تلك بأحسن حال شبعاً وراحة وصلاح أمر، فلما كان من الغد قدمت وشددت بعبائتي وسطي، وجاء العد فجعل يدور حولي ويريد قتلي وأنا منه وجل ولا أدري كيف أصنع به ثم دنا قريباً فشج جبهتي بظفره شجة نالت مني أصعب منال فغاظني ذلك، فجعلت أنظر ما أقبض منه، فما وجدت شيئاً أصغر من رأسه، فوضعت إبهاميّ في صدغيه، وأصابعي الأخرى في أذنيه ثم غمزته غمزة صاح منها قتلتني قتلتني فصفق الحاضرون من شهود الأعراب ووجهاء المدينة، وقال الأمير مبتسماً: أغمس



رأس العبد في التراب، فقلت له ذلك عليّ فغمست والله
رأسه في الثرى، ووقع مغشياً عليه حتى ضحك الوالي وأمر
لي بجائزة وكسوة وانصرفت!!

فضحك يزيد مرتاحاً وقال في احتيال: كأنك
يا هلال تسلك مسالك صعاليك العرب من قطاع الطريق
ومغتالي الأرواح! فتعيدُ سيرة تأبط شراً وعروة ابن الورد
ومالك بن الريب!

فتجهم هلال تجهماً صار به وجهه قطعة من الليل وقال
في غضب:

لست صعلوكاً ولا قاطع طريق يا أمير المؤمنين وإنما
أنا أعرابي أسير وراء إبلي، وأذهب بما عليها من السلع إلى
أصحابها فأعيش بأجر النصب والتعب والكلال...

فقال العباس إن مثالك في قوته وبأسه لا بد أن يتجبر
على الناس، فيخيف الآمن ويقطع السبيل في صحراء تيهاء،
ذات منادح وشعاب!!

فنظر هلال نظرة الواصل المعتر وقال: شهد الله لم أبدأ
أحداً بشراً ما دون أن أجد منه العدوان.. وكم مرّ بي من أناس
فاستخفوا بمرقدي وانهالوا عليّ بالسياط.. وإذ ذاك أعمد إلى
الانتقام.



فقال يزيد في عجب: يضربك الناس بالسياط!! ومن
يقدر على ذلك!

فأجاب هلال في ثبات: ولعينيه بريق آخذ كاد يفرع له
يزيد في مجلسه! لولا ما حوله من حراس يمتشقون السيوف
ويُصوّبون الرماح.

كنت يوماً بالصحراء وقت الظهيرة وقد احتدمت الهاجرة
احتداماً يشوي الوجوه ويكوي العظام فعمدتُ إلى عصاي
وطرحتُ عليها كسائي واحتسيتُ بالظلّ، فمر بي رجلان
أحدهما من بني نهشل والآخر من بني نعيم وهما أشد بني
تميم بأساً وعزماً ومعهما أنواط من تمر هجر، فحين وقع
نظرهما عليه ناديا: يا راعي الإبل أعندك شراب تسقينا قلت
وأنا نائم لا أتحرك، عليكما الناقة البيضاء فأنىخاها فإن لبنها
لكثير فاشربا ما بدا لكما، فقال أحدهما: ويحك أيها العبد
انهض فأتِ اللبن فقلت اذهبا لتشربا، فقال أحدهما: إنك يا
ابن اللخناء لغلظ الكلام قم فاسقنا ثم دنا مني وجاء الآخر
فقال مثل قوله ودنا فلا والله ما اكرثت، وتقدم أحدهما
فأهوى عليّ ضرباً بالسوط فتناولت يده وأنا نائم ورميتها
تحت يدي، وضغطتها ضغطة صاح منها صارخاً ونادى
صاحبه أدركني فقد قتلني!! فدنا يصفع ما يصفع فأخذت



يده وفعلت بها ما فعلت بأختها ثم أخذت برقبتيهما فجعلت
أصكهما صكاً لا يستطيعان أن يمتنعا منه فقال أحدهما:
أنت هلال ولا يفعل ذلك سواه! قلت أنا هلال فطفقا يبيكان
فرحمتهما وتركت لهما العنان...

فضحك يزيد بن عبد الملك ثم نظر إلى أخيه العباس في
تطلع وقال يخاطب هلالاً: والله لجدير بك أن تسمى أسد
الصحراء! ولكن ماذا تصنع بها إذا طال عليك النهار، ولج
بك الصمت فلم تر من تأخذ معه بأطراف الحديث!!

فقال هلال في أدب إن الشعر رفيقي المؤمنس يا أمير
المؤمنين فأنا أحفظ القصائد الطويلة وأتلهى بإنشادها إذا
انفردت دون الناس.

فقال العباس في عجب: يا سبحان الله! أيمن أن يحفظ
هذا الأصم الأصلد رقائق الأشعار وطرائف الأراجيز.

فنظر إليه هلال نظرة ناقمة كاد العباس يتحسس منها ريح
الخوف لولا أنه في مجلس أمير المؤمنين ثم قال في اعتداد
احفظ الشعر: أيها الأمير وأنظمه فيذيع بين الناس!!

فقال العباس في دهشة: وشاعر أيضاً.. هذا شيء
عجيب!! ألم يقل أمير المؤمنين أنك تسلك مسلك
عروة بن الورد وتأبط شراً ومالك الريب! وكلهم شعراء.



فردّ هلال في حزم: أسلك مسلّكهم في الفتوة والبسالة
ونظم القصائد ورواية الأشعار ولا أسلك مسلّكهم في السوط
والاغتيال ونهب الطريق...

فضحك يزيد! وقال هو ما تقول يا هلال فأسمعنا بعض
ما نظمت من المديح..

فأطرق هلال برأسه وقال في أدب: أصدقك القول يا أمير
المؤمنين إذا أعلنت أنني لم أنظم بياً واحداً في المديح فليست
علم الله من الذين يتخذون الشعر مطية كسب وآلة استجداء..
ولخير لي أن أكون أبكم أعجم من أن أجعل لساني منكسراً
ذليلاً يستجدي للمال وينكسر للعطاء..

فرفع العباس رأسه في بشرٍ وصاح: حيّاك الله من شجاع
ذي همة واعتلاء.. علم الله ما تأثرت بشجاعتك كما تأثرت
بنفسيتك!! ولأنت خير من يستدعيه أمير المؤمنين من
أقاصي الأرض فيجزل إليه الحياء.. ويفسح له المكان.

فضحك يزيد ثم قال يخاطب العباس: كأنك لم تعد
تزعم أنني أستدعي شذاذ الآفاق وأنهج نهج المتبطلين.
فقال العباس إن كان زائروك من معدن هلال! فأهلاً
بالزائرين.

فرفع أمير المؤمنين رأسه إلى هلال وقال: لقد أسديت
إليّ أيها الرجل يداً بيضاء إذ كنت سبباً في ارتياح أخي



العباس وانشراحه وأكافئك بما لا يندرج في حسابك من
الأعطيات!! فأهلاً بالعباس ومرحى برضاه.

قال العباس في ابتسامٍ وديعٍ: أشهد لقد سررتُ بمجلس
أمير المؤمنين.

فقال يزيد متهللاً أزد سروره بإهلال وسأعفيك من رواية
الشعر، وإنشاده كما تحد، فأت لنا من نوادر بسالتك، ولن
يطول بك الحديث.

فشخص هلال إلى يزيد في اعتداد ثم مد بصره إلى
العباس كمن يشكره في صمتٍ دون أن يبين... واندفع يقول:
ذهبتُ مع صديق لي إلى خيام بكر بن وائل وقد لغبنا
وعطشنا، وإذا نحن بفتية شباب عند بئر لهم وقد ردت
إبلهم، فاستهولوا مرآي واستفطعوا خلقي وقامتي وقام
رجلان منهم فقالا: يا عبد الله هل لك في الصراع فقلت في
حياء: أنا إلى غير ذلك أحوج، فقالا وما هو؟ قلت إلى لبن
وماء فأني لغب ظمآن، فقال أحدهما لست بذائق من ذلك
شيئاً حتى تعطينا عهداً لتجيبنا إلى الصراع إذا شبت روريت
فقلت في هدوء أنا ضيف غريب والضيف لا يصارع مضيفه
ورب منزله، وأنتم مكتفون من ذلك بما أقول لكم فاعمدوا
إلى أشد فحل في إبلكم وأهيبه صولة وإلى أشد رجل منكم



ذراعاً فإن لم أقبض على هامة البعير وعلى يد صاحبكم
فلا يمتنع الرجل ولا البعير حتى أدخل يد الرجل في فم
البعير فاعلموا أنكم صرتموني إذ لم أفعل، وإن فعلته فإن
صراع أحدكم أيسر من ذلك.. فعجبوا كثيراً من قلبي.. ثم
أشاروا إلى فحلٍ في إبلهم هائج صائل فأتيته وأخذت بهامته
وضغطتها ضغطة ثقيلة جرجر الفحل منها واستخذى ورغاً
ثم قلت من شاء فليعد إليّ يده فأدخلها في فم هذا الفحل..
فلا والله ما تجرأ أحد وصاح الناس تنكبوا هذا الشيطان فما
سمعنا هذا الفحل يجرجر قبل اليوم..».

فنهض العباس يقول في ابتسام تنكب يا أمير المؤمنين
عن هذا الفحل فما خلع قلبي لحديث كحديثه.. ثم استأذن
ومضى فصفق يزيد فأحضر صاحب خزانته وأمره أن يحتل
هلالاً من أعطياته ما يطيق.

فتبسم خازن المال في أدبٍ وقال: مخاطباً يزيد لئن حملته
ما يطيق، ليحملن جميع ما في الخزانة يا أمير المؤمنين!!

فعجل هلال يقول متضحكاً لا بأس على الخزانة يا أمير
المؤمنين فسأحمل منها دون ما أطيق، وانصرف بسام الثغر
ظاهر الارتياح!!



خوارج أشداء

تأزمت الأمور بمروان بن محمد ذات ليلة وهو يجلس وحده في قصره الشاهق بدمشق، يفكر فيما يقاسيه من ويلات الحروب، ومن النافرين، وقال في نفسه: كنتُ أطمع في الخلافة أملاً في هناة العيش، ورفاهية الأيام، فما إن أخذتها بحد السيف حتى عدمت الراحة، وجافيتُ الرقاد! فما أنتقل من حومة إلا إلى حومة، وما أنتهي من دماء إلا لأصلها بجداول أخرى يختلط بها نثار الجماجم والأشلاء!! فقد شغب عليّ - لأول عهدي بالأمر - عبد الله بن معاوية بالكوفة، فتوجهتُ إليه في سفر جاهد، وقيظ لافح، وكابدتُ المصاعب حتى انتهيت من أمره، في حرج وضيق، وكنت أظن الشام في قبضة يدي كما كانت من قبل في حوزة آبائي من بني مروان، يصلون بجنودهم، ويجتمعون بأسنتهم، فرأيتُه ينتقض عليّ مع المنتقضين!! فحمص ثور وتأبى



البيعة، وأتجشم في إخمادها ما أتجشم من الصاب، ثم لا أكاد أضطجع بجنبي المرهق في مرقده، حتى تثور الغوطة وفلسطين... فأذهب إليهما كادحاً غير مستريح، وأرجع بعد إعياء إلى دمشق فأسمع أن ابن عمي سليمان بن هشام قد طلب الملك وخلعني بقنسرين فأذهب إليه لاهثاً مكدوداً وألاقي في نضاله شرور البلايا وصنوف الدواهي!! وها هي ذي الأنباء ترجع إليّ بثورة الخوارج، ودخولهم الكوفة! فماذا أصنع الآن؟ أفر من الخلافة فأستريح، وهبني فعلت، فبأي وجه أقابل الناس، وما منهم إلا شامت مستهزئ، يسخر بخيبي المحزنة وفشلي الذريع!!

هواجس حزينة مسهبة قد توافدت على خاطر مروان وأخذت عليه تفكيره فكان لها في نفسه وقع النصال المسمومة، وكلما حاول أن يتناساها لحظات قصيرة كرت عليه بطعناتها الدامية ووخراتها الأليمة!! وشاء أن يفرّ من وحدته القاتلة، فصفق مرتبكاً بيده، وحضر خادمه ممثلاً، فنظر إليه في امتعاضٍ ناغم، وقال متعجلاً: ادعُ إليّ عبد الحميد الكاتب، فأنا إليه محتاج إذ كان عبد الحميد موضع سرّ الخليفة وصاحب محنته! فهو يستشير في كل أمر يعن له، فيشير بما ينبئ عن حزم ودريّة، وقد لبيّ دعوته فحضر ليشاركه همومه وهواجسه، وكشف



له الخليفة عما يختلج في صدره من الهم، فوجد الأذن الصاغية، والقلب السميع، حتى إذا أفرغ ما في جعبته انبرى عبد الحميد يقول: لا تحزن يا مولاي فكم ليل تكاثفت ظلماته، وادلهمت طرقاته، ثم أسفر من بعده الصبح المبين، ولئن اتعبتك الوقائع وشيبتك الحروب، فقد أمدك الله بتأييده فرجعت منها مسدد الخطوات منتصر الغزوات، تعنو لك الرقاب وتنخلع هيبة منك قلوب المتآمرين، فقال مروان: لو تفرغت للخوارج لأتيت عليهم ما بين ضحوة وعشية، ولكن ثورات أبناء عمومتي من بني مروان قد أنهكت القوى، وشتت الجهود، لقد كان الوليد بن عبد الملك وسليمان أخوه وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك جميعاً أحسن حظاً مني، فلم يشغب عليهم شاغب من ذوي القرابة! فقضوا أيامهم في سعادة شاملة، وأنس ناضر!! وقد ظننت حين انتهى إليّ هذا الأمر أنني سأنعم ببعض ما ينعمون فسعيْتُ إلى الخلافة طمعاً في الدعة والجاه، ولم أدر أن الدهر قد قلب لبني مروان المجنّ، فهم في شقائهم يعمهون!

فردّ عبد الحميد في صراحة تعوّدها منه أمير المؤمنين: إن يزيد بن الوليد قد فتح باب الكوارث على الخلافة حين ثار على سلفه الوليد بن يزيد واحتز رأسه فسنّ بذلك سنة



سيئة نبهت المطاعم إلى إمارة المؤمنين، ولولا هذه الجريمة
النكراء لبقى عرش مروان مهيباً جليلاً لا تتطلع إليه العيون
وأنت بدورك يا أمير المؤمنين قد ثرت على إبراهيم بن الوليد
واغتصبت عرشه منه! فتوقع أن تهب عليك الزعازع من كل
فج، وهي كأس تدور!!

فعضّ مروان على شفثيه وقال في أسف: تعجبني
صراحتك يا عبد الحميد! لأن وراءها رصيذاً كبيراً من الثقة
والإخلاص، وإنني لأستريح إلى استشارتك ومطارحتك
لتطلعني في أمانة على رأيك الخاص فيما آتي من حسنات
وهنات!! وكم في الناس من مرأين خاتلين، يتملقونني
بمعسول الحديث وعذب الرياء! وقلوبهم تشغر بالضغينة وتئز
بالحقود كقدر فوق النار!!

فأطرق عبد الحميد كمن شرد في تفكير عميق! ثم رأى
الخليفة يتطلع إليه منتظراً حديثه، فسارع يقول: علم الله أنني
أبذل نفسي فداء أمير المؤمنين، وأن ولائي له يجري في
عروقي مجرى الدم، ولئن كان في حرب مع أعدائه، فأنا
معه أعاني برح ما يعانيه!! على أن الأمر أقرب إلى الأمل
والتفاؤل، فقد انهزم الثائرون من بني أمية، ولم يبق غير
الخوارج، وأمرهم يسير!!



فتدارك الخليفة يقول معارضاً: أخطأت يا صديقي!!
 فالخوارج أقوى شكيمة، وأرهب بأساً ممن تعرفهم من
 الثائرين! وإن بني عمي يجمعون الناس بالذهب والمال،
 فإذا جد الجد، وحمى الوطيس خاف كل مأجور على
 روحه، وتفرق الناس أباديء!! أما الخوارج فأصحاب عقيدة
 دؤخوا علياً ومعاوية وعبد الله بن الزبير.. وجاء دوري الآن،
 فثار ثائرهم أبو حمزة الخارجي بمكة والمدينة، واجتمع
 إليه الناس من كل فج، والعجيب أنه قاتل جيوش الخلافة
 بالحرمين الشريفين مجتمعين!! فاكتسحهم عن قوة وإيمان،
 وانضم إليه الناس طواعية واختياراً، فقد زعم المرجفون أن
 رجلاً يبلغ بجيشه القليل هذا النصر الحازم، لا بد أن يكون
 مؤيداً من السماء!! ومحاطاً بعناية الله، وما أسرع العامة إلى
 تصديق الشائعات واتباع الأراجيف!!

فهزّ عبد الحميد رأسه ناقماً متألماً، ثم قال: وهل انهالت
 علينا الشرور إلا من العامة!! إنهم في كل مكان وزمان
 يتبعون كل ناعق، فما إن يتقدمهم فارس شجاع، يحمل راية
 ثائرة، حتى يسرعوا إليه مختارين، وكل يزعم لنفسه شأناً
 في الدولة المرتقبة، فينبه اسمه بعد خمول!! وما ظنك إذا
 كان ثائر اليوم أبا حمزة!! وهو إلى شجاعته المغامرة خطيب
 ساحر يستلين القلوب الصخرية بوعظه، ويسبغ على نفسه



هالة من الورع والجلال، وقد خطب بمكة خطبة مجلجلة
حفظها الناس كما يحفظون الأشعار بل كما يحفظون كتاب
الله!! وجاءتني بدمشق مع الرواة، فأخذت نفسي شهد الله
بحفظها واستظهارها، وكأنها تنزيل من التنزيل!!

فنظر مروان كالمأخوذ وقال في عجب: يا سبحان الله:
عبد الحميد الكاتب سيد بلغاء عصره، يستظهر كلام أبي
حمزة الخارجي كأنه تنزيل حكيم!! ناشدتك الله إلا أسمعني
بعض ما حفظت، وما أخالك مخالفني إلى ما لا أريد.

فقال عبد الحميد في أناة: سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين:
بلغني أن أبا حمزة الشاري صعد إلى المنبر ذات عشية
يتحدث عن أصحابه فقال: «شباب والله مكتهلون في شبابهم،
غضيفة عن الشر أعينهم، ثقيلة إلى الباطل أرجلهم،
انضاء عبادة، واطلاح سهر، باعوا أنفسهم تموت غداً بأنفس
لا تموت أبداً، وقد نظر الله إليهم في جوف الليل منحنية
أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر
الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة
كأن زفير جهنم بين أذنيه، وقد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم
وأنوفهم وجباههم، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، حتى
إذا رأوا سهام العدو وقد فرقت، ورماحهم وقد أشرعت،



وبرقت الكتيبة، ورعدت بصواعق الموت، استخفوا بوعيد
الكتيبة لوعيد الله، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة،
فمضى الشاب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاه على عنق
فرسه واختضبت محاسن وجهه بالدماء، وعفر جبينه بالثرى
وانحطت عليه طير السماء وتمزقته سباع الأرض، فطوبى
لهم وحسن مآب، فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكى
صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يدٍ قد أبينت
عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راعياً ساجداً، وكم
وجه رقيق، وجبين عتيق، قد فلق بعمد الحديد!! ثم بكى
وقال: آه على فراق الإخوان، ورحمة الله على تلك الأبدان،
وأدخل أرواحهم الجنان».

زفر أمير المؤمنين زفرة ملتبهة وقال في انفعال: هذا
سحر يؤثر، هذه سهام البلاغة ونصال البيان! ولعمري لخطبة
واحدة من هذا الطراز، تصنع ما لا يصنع الجيش الموار!!
إن هذه الفصاحة الخالبة لن يقوم لها بالمعارضة والتفنيد
غيرك يا عبد الحميد!! وما أظنك حفظت هذه المقالة إلا
لتمزقها إرباً إرباً حين نسوق الجموع بأدلة قواطع وبراهين
حداد!! فابتسم عبد الحميد في اعتداد، وقال: لقد اتفقنا
يا أمير المؤمنين!! وأراك تسير معي في الطريق، فإذا دنا
جيش الخوارج من دمشق بعثنا إليهم بمن يناقشهم الرأي،



ويعارضهم بالدليل، وهم - بعد - أعراب جفاة لا يفتنون إلى حبائل الخداع ويكفي أن نتلو عليهم الآية من القرآن وأن نفسرها أمامهم بما يخذل عدوانهم وإذا ذاك ينقسمون على أنفسهم ويتقاتلون، فرد مروان بعد إطراق أنت لهم يا عبد الحميد! واستعن بحججك وبراهينك من الآن، فتلمس المشكل من الآيات، والمتشابه من الحديث، واقتطف في وجوههم بكل ما يعن ويخطر ولا أزيدك توصية! فهذا ميدانك الأصيل، ثم سكت الخليفة قليلاً... واستأنف يقول: ولكن هل فكرت في رأيك هذا قبل الآن، فأعددت قوارص الجدل وقوارع النقاش من قبل، أم أن هذا الخطر الماكر قد سرح لك سريعاً معي!!

فوضع عبد الحميد يده على جبهته كمن يستذكر ماضياً بعيداً، ثم قال: لقد تتبععت أنباء الخوارج منذ شغبوا على عليّ بن أبي طالب، وعرفت أن المهلب بن أبي صفرة كان يستعين عليهم بالمكيدة الماكرة، إذ أن شجاعتهم الباسلة كانت تضيق عليه الخناق، فلجأ إلى الختل والخداع.

فشخص أمير المؤمنين بعينه إلى صاحبه، وقال: داهية! كان المهلب بن أبي صفرة! مَنْ لنا اليوم يبطل صنيدي مثله! فاذا ما كان يصنع لنستفيد!!



فأسرع عبد الحميد يقول: كان يجدُ سهام الخوارج تتقاطر على كتائبه كالمطر من أتباع قطريّ بن الفجاءة، فبعث عيونه متنكرين، فعلموا أن صانع السهام حداد من الأزارقة له مهارته العجيبة! وعرفوا اسمه ووصفه ثم رجعوا بهما إلى المهلب، فلجأ إلى الخديعة وكتب كتاباً إليه يشكره على هديته المزعومة له من السهام ويمنحه ألف دينار! وبعث بمن أوقع الكتاب والمال في يد قطري، فتوهم أن الأمر صحيح، وجاء بالحداد فقتله، فثار الأزارقة ناقلين، وقالوا لقطري: كيف تقتله دون بينة، ورفعوا الرماح متناحرين!

فقال مروان: حيلة مثمرة دون نزاع!! أليدك غيرها من فنون المهلب ودواهيته؟

فأجاب عبد الحميد: لقد أرسل المهلب رجلين من أعوانه إلى أتباع قطري، وأمرهما أن يظهرَا طاعته ويعلنا أنهما من الخوارج عن يقين، ثم طلب من أحدهما أن يسجد لقطري أمام الناس، فإذا فعل ذلك قام الثاني غاضباً وقال: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، فكان ما اتفق عليه!

واختلف الخوارج اختلافاً عظيماً، فقائل: إنه عبد قطرياً ممن دون الله، فقطري من حصب جهنم، وقال آخرون:



عبد المسيح وليس من حصب جهنم! ثم تشاجر الجمعان
وانتهى خلافهما إلى بلاء عظيم!

فردّ الخليفة يقول: هنا يثمر اللجاج والنقاش! وقد
أخذت برأيك، وستكون رسولي إليهم إن هاجموا دمشق قبل
أن يلتحم الفريقان، وعليك أن تختار ظهيراً لك من ذوي
اللسن والإفصاح فيشد أزرك فيما تريد! فمن يسد هذا المسد
الخطير!؟

فسكت عبد الحميد مفكراً ثم قال: لا أعرف غير
واصل بن عطاء مدرّها فيصلا يقرع البرهان بالبرهان!
فأجاب الخليفة في جد: وأنا أعلم ما تنوّل عن واصل
من الإقناع والسداد وأحب أن أراه لنتفق على ما يكون.
فأسرع عبد الحميد يقول واثقاً مؤكداً: سأتيك به متى
جاءني! ثم نهض مستأذناً فأذن له الخليفة... على أن يتقابلوا
جميعاً في مدى قريب.



حان لقاء واصل فقد حضر إلى قصر الخليفة ملبياً دعوته،
وقابله عبد الحميد فحيّاه وصافحه ثم اصطحبه إلى مجلس
أمير المؤمنين، وكان في ملأ من الرعية يستمع إلى المظالم



ويناقش المتخاصمين، فأمر، فأخلى المجلس سريعاً وتفرق
الناس ودعا الخليفة صاحبيه فأخذا مكانهما، ثم بدأ مروان
مبتسماً: لقد سمعت أنك خارجي يا واصل!!

فضحك واصل في أدب وقال: وأنا سمعت ذلك يا أمير
المؤمنين!

فابتسم مروان وقال: أوافقهم في بعض ما يعتقدون! فردّ
واصل في حزم:

هم مسلمون على كل حال، وأمير المؤمنين حفظه
الله يوافقهم أيضاً على بعض ما يعتقدون!! فضحك
عبد الحميد ونظر إلى مروان قائلاً: هذا أول الغيث يا أمير
المؤمنين! فقال مروان في خبث: بل هذا أول اللسن
والإفحام!

فابتسم واصل وقال: سأروي لك شيئاً عن الخوارج
يا أمير المؤمنين، فقد وقعت أسيراً في أيدي جماعة منهم،
وتحققت القتل إن جاهرتهم بما أعتقد دون إنكار، فلجأت
إلى الحذر ونجوت!

فسأل مروان: وكيف سهل باب النجاة؟

فقال واصل في دعابة: سألني القوم من أنت؟ فقلت
مُشركٌ مستجير! فصاح قائلهم: وإن أحد من المشركين



استجارك فأجزه حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه فقلت
وأين المأمن؟ فتركوني أسير.

فاستدرك عبد الحميد يقول: لو قال واصل أنه مسلم لا
مشرِك لأزعجوه بالأسئلة وقتلوه!

فابتسم واصل وقال: كتب الله لي أن أعيش.

فنظر مروان إلى واصل طويلاً، ثم سأله في اهتمام:
وكيف علمت أنهم يتركون المشرك ويقتلون المسلم!!

فأجاب واصل في انتباه: علمت أكثر من ذلك يا أمير
المؤمنين، فقد قابلوا مسلماً وذمياً، فقتلوا المسلم واستوصوا
بالذمي خيراً، قابلهم عبد الله بن خباب ابن الأرت، وفي عنقه
مصحف، ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له: ما تقول في
أبي بكر وعمر فأثنى خيراً، فقالوا وما تقول في عليّ وعثمان،
فأثنى خيراً، فما تقول في التحكيم، فقال في إخلاص: إن علياً
أعلم بكتاب الله منكم، وأشد توفياً لدينه، وأنفذ بصيرة، فصاحوا
في غضب: أنت لست تتبع الهدى ثم قربوه إلى النهر وذبحوه
أمام امرأته، أما الذمي فقد وجدوا معه نمرأ، فأخذوه بثمرته! فقال
في عجب: تقتلون ابن خباب! ولا تأخذون النمر دون أجر!!

فنظر مروان إلى واصل، وسأله في لباقة: وماذا تقول في
تعليل ذلك؟



فقال واصل يا أمير المؤمنين، الخوارج قوم يعتقدون أنهم على حق، ولكن حظهم من العلم قليل، وقد اختلفوا على عليّ دون موجب! إذ أشاروا عليه بالتحكيم فقبله مكرهاً، حتى إذا انكشف عن لجاج وفتنة نقموا على التحكيم وخالفوا علياً من أجله، وهم مقترحوه! ولو كان علي ممن يقبل المداجاة والمداهنة لاسترضاهم بقول يسير لا يعتقده فأمن الخلاف!!

فالتفت مروان إلى عبد الحميد وقال له: تعجبني صراحة واصل، ومثله من يعتمد عليه في ثقة ويقين!

فأطرق واصل لحظات ثم قال في رفق وتهذيب: يا أمير المؤمنين، لقد سلك الخلفاء من لدن علي مع الخوارج سبيل الدماء والحروب، وما أرى من وفق معهم في أمره، كعمر بن عبد العزيز إذ منع الحرب، فلم يسَلَّ سيفاً على معارض، ودعا برئيسهم شوذبا الإشكري إلى المناظرة والحجاج، فأرسل إليه اثنين من أتباعه، ودار النقاش بينهما وبين أمير المؤمنين فاقتنع أحدهما برأي عمر وانضم إليه، ورجع الآخر فأبلغ شوذبا أن الكلام قد انقطع به فما يجد الدليل... وهكذا عصم عمر رضي الله عنه دماء أصحابه أن تراق.



فانتهاز الخليفة مجرى الحديث وقال في انتباه: وسأوفدك مع عبد الحميد إليهم إذا طرَقوا أبواب دمشق في موكب أبي حمزة الخارجي، ولي في حجتكما البالغة، وجدلكما الصائب، ما يشفي صدور قوم مؤمنين!

فتهلل وجه واصل وقال في ابتسام: سيصنع الله كل خير لأمير المؤمنين، فتابع الخليفة يقول: على أني لن أدخر وسعاً في إعداد القوة، وتعبئة الجيوش، فإذا لم تصلا مع القوم إلى رأي، فالحرب قائمة بيننا على قدم وساق! حتى نحمي العرين، فلم يترث واصل وقال: إن الحرب - يا أمير المؤمنين - لن تبلغ القوم مبلغ الجَدال، وقد عبأ الحجاج جيوشه فما استأصل لهم شأفة، وبذلك زياد بن أبي سفيان مكيدته وحر به فما سحق لهم هيبة، بل أن شبيباً الخارجي دخل الكوفة عرين الحجاج، وطاف بها، وقتل كثيراً ممن يعتصمون بمساجدها، وبعث الإرهاب في النفوس دون إحجام فرد عبد الحميد يقول - وقد توجه بالحديث إلى واصل - أما إن ذكرت شبيباً فاعلم أنه أسد الخوارج! لقد هزم جنود الحجاج بسبعين رجلاً من أبطالها.

وحين دخل بقومه الحصن أوقد الحجاج عليهم النار المشتعلة فكادت أن تأتي عليهم، على قلتهم القليلة! فامتشق



شبيب السيف وتقدم أصحابه ثم هجم على اللظى فخاضه
كالماء غير هياب!! وانتبه الحجاج فإذا زبانية جهنم يخرجون
من النار ويهجمون بغتة فينتصرون!! ويميناً لولا أن شبيباً قد
غرق بدجلة، لأمر لا حيلة له فيه ما تراجع عن الحجاج!

فأشار واصل إشارة الموافق وقال في تعقل رزين: إن
شجاعة شبيب مقبولة معقولة، فهو رجل على كل حال!
ولكن ما رأيك في شجاعة غزاة وقد أقسمت لتلجن على
الحجاج غابه، فتصلين في مساجد الكوفة صلاة كاملة
بمطولات القرآن.. ثم اقتحمت الحصار وبرّت باليمين!!

والحجاج خائف طريد يستمع إلى قول مُعَيَّرِهِ.

هلاً برزت إلى غزاة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
فردّ عليه الكاتب يقول: هو ما ذكرت يا أخي، ثم توجه
بنظره إلى أمير المؤمنين وقال في أدب: لا شيء أجدى من
الإقناع والجدل يا مولاي عساهم يختلفون!!

فهزّ الخليفة رأسه موافقاً، وأثنى على واصل ثناء مستطاباً
ثم خلع عليه، واستمهله إلى وقت قريب، حين تأزف الآزفة
فيكون مع صاحبه سفيرني أمير المؤمنين.

وخرج الرجل كما جاء مبجلاً مشكوراً، وهمّ عبد الحميد
بالذهاب معه، فأشار عليه مروان أن يترث، فجلس مفكراً



يستشف ما هجس بصدر مروان بعد لقاء واصل، وانتظر أن يصل معه ما انقطع من الحديث في أمر الخوارج، وأعد لكل سؤال جوابه السيد ولكن الخليفة يقول: لقد انتهينا من أمر أبي حمزة الخارجي إلى حل موفق، فماذا تقول في أمر نصر بن سيار!!

ففوجئ عبد الحميد بسؤال لم توقعه! وسأل في دهشة: ما خطب نصر ابن سيار يا أمير المؤمنين؟!

فقال الخليفة متضايقاً: لقد كتب إلي من خراسان يخبرني بظهور أبي مسلم الخراساني وقيامه بالدعوة لبني هاشم! وقد التف حوله العدد الكثير.

فعضّ عبد الحميد على شفّتيه، وقد أذهلته المفاجأة الباغية، فجعل عرقه يتساقط ثم قال في انقباض عابس: أمهل نصرأ يا أمير المؤمنين، واكتب له أن يقاوم وحده بمن معه من الجيش دون انتظار إلى مددٍ لاحقٍ من الشام!! أما نحن فلن نحارب في جبهتين مختلفتين، فإذا فرغنا من الخوارج فدُونْنَا خُرَاسَانَ!!

فقال مروان في ضيقٍ متأزم: إن عذابي لطويل، ونهض قائماً... فخرج وراءه عبد الحميد...

محتويات الكتاب



7.....	مقدمة
11.....	أخ جديد
29.....	شكوى عاشق
45.....	على ضفاف النيل
63.....	خصم عنيد
78.....	جبهة عالية
94.....	جبار يتصاغر
110.....	بطل مضطهد
125.....	خليفة زاهد
143.....	علوي ثائر
160.....	مصرع شاعر
175.....	طفيلي يلهو
192.....	مطربتان فاتتان



- 209.....أَكُولُ نَهْمٍ
- 221.....خَوَارِجُ أَشْدَاءَ
- 237.....مَحْتَوِيَاتُ الْكِتَابِ

